دكتور

حسن سليمان محمود

تاريخ السودان

من أقدم العصور إلى الآن

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي " الفجالة "

١٣٧٧

١٩٥٧

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

مطابع دار الكتاب العربي بمصر
مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

٩ من ربيع الثانى ١٣٧٧
الأول من نوفمبر ١٩٥٧

دكتور

حسن سليمان محمود

تاريخ السودان

من أقدم العصور إلى الآن

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

مطابع دار الكتاب العربي بمصر

مؤسسة مصرية للطباعة الحديثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لهذا الكتاب قصة كانت مجرد اقتراح قدمته للسيد عبد الحميد حمدى ناظر مدرسة الخرطوم الثانوية المصرية ، أطلب فيه ضرورة تدريس مادة (تاريخ السودان) فى المدرسة . ونظراً لما قدمته من أسباب قوية لتزكية وجهة نظرى فى تدريس هذه المادة ، وافق السيد ناظر المدرسة على ذلك مشكوراً ، وكلفنى بوضع منهج الكتاب ومادته . وأمر بإدراج حصة فى جدول المدرسة لكل فصل من فصول الفرق المختلفة لتدريس هذه المادة . ونتيجة لذلك أصبحت أنا المسئول الأول بعد هذه الموافقة عن هذا المنهج .

ونظراً لأن كثيراً من الكتاب والمؤلفين والباحثين قد تناولوا دراسة السودان فى نواحيه المختلفة : الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، وأن بعض هؤلاء الكتاب امتازت كتاباتهم بالعمق والإسهاب والتفصيل فى نواح معينة ، مما جعل الأمر شاقاً على القارىء العادى أن يتابع هذه الدراسات وهذه البحوث ، إذا كان يريد أن يقف على تاريخ السودان بصفة عامة . لذلك لم يكن الأمر سهلا لوضع كتاب أو مذكرات تاريخ السودان بطريقة تمكن الطلاب أو القارىء العادى أو السواد الأعظم من المتعلمين ، من معرفة هذا التاريخ بطريقة مبسطة واضحة ، تملأ فراغاً كان ولا يزال موجوداً فى مناهج التعليم .

وقد أخذنا على عاتقنا القيام بهذا العمل (كمحاولة أولى) خدمة للعلم ولأبنائنا الطلاب بصفة خاصة ، وللشعب بصفة عامة . فإن وجد فيه القراء نفعاً فهذا راجع إلى توفيق الله ، وإن كان فيه شيء من القصور فمرده إلينا ، والعصمة لله .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأقدم جزيل شكرى إلى الزميل الفاضل الأستاذ على صلاح الدين ، الذى تفضل مشكوراً بعمل اللوحات التى تضمنها الكتاب . كما أشكر زميلى الأستاذ أحمد أحمد سيد أحمد لما أبداه من ملاحظات مفيدة . حتى ظهر الكتاب بالشكل الذى ترونه بين أيديكم .

والله ولى التوفيق ،،،

المؤلف

دكتور حسن سليمان محمود

المدرس الأول بمدرسة الخرطوم الثانوية المصرية

الخرطوم فى { ٩ من ربيع الثانى ١٣٧٧
الأول من نوفمبر ١٩٥٧ }

الفصل الأول

السودان قبل الإسلام

تعريف :

أطلق اسم (بلاد السودان) على الجهات الإفريقية التى تقع جنوب مصر والصحراء الكبرى ، وتمتد جنوباً حتى أوغندة ، والكنغو البلجيكية ، وشرقاً أثيوبيا وأرتريا والبحر الأحمر ، وغرباً أفريقية الاستوائية الفرنسية وليبيا . وتبلغ هذه المساحة الشاسعة ما يقرب من ألف ألف من الأميال المربعة .

وعرفت (بلاد السودان) قديماً باسم (أرض كوش) ، وقد حاول الكتاب القدامى ربط هذه الكلمة بـ (كوش) من أحفاد نوح عليه السلام ، ولكن يبدو أن هذا بعيد عن الصواب . والراجح أن (كوش) التى عرفت بها البلاد جنوب الشلال الأول ، لم تكن إلا اسم القبيلة الأكثر قوة وعدداً ، كما هى الحال بالنسبة لقبيلة (نوب) التى نسبت إليها (بلاد النوبة) ، والتى سكنت بين الشلال الأول والثانى .

ولما احتل الإغريق مصر ، أطلقوا على البلاد التى تليها جنوباً دون تحديد ، لفظ أثيوبيا . وكذلك تبعهم الرومان فى تلك التسمية ، كما تبعهم العرب من بعد .

(أولا) السودان فى عهد الفراعنة :

(ا) فى عهد الدولة الفرعونية القديمة :

١ — أسمى المؤرخون القدماء سودان الوادى من الشلال إلى الخرطوم ، أثيوبيا . ومنذ أقدم العصور تعارف المؤرخون على اعتبار تاريخ أثيوبيا ملحقاً بتاريخ مصر . والواقع — كما يقول المؤرخ بدج — أن السودان اعتبر منذ العصور القديمة امتداداً لمصر ، وكما يقول ريسنر : « لما كانت مصر تتصل بوسط إفريقية عن طريق إثيوبيا ، فقد أصبح تاريخ هذا الإقليم لا يمكن فصله عن تاريخ مصر ، كما أن ذلك التاريخ لا يمكن فهمه إلا على ضوء تاريخ مصر ، جارة إثيوبيا الكبرى من ناحية الشمال » .

٢ — وتشير أقدم المخلفات الإنسانية على ضفاف النيل فى شق الوادى ، إلى وجود الصلات بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، فقبور المصريين قد وجدت عند دكة من أقاليم النوبة السفلى قبل عام ٣٤٠٠ ق.م كما عثر على بعض محصولات السودان فى مخلفات المصريين التى وجدت فى قبورهم من ذلك العهد . كما دلت البحوث التاريخية فى عصر فجر التاريخ ، على أن المنطقة التى تقع بين الشلالين الأول والثانى ، قد كانت معمورة بأقوام من جنس المصريين الذين يسكنون شمال الوادى مما يلى أسوان .

٣ — واهتم الفراعنة بتوحيد أجزاء وادى النيل وذلك لسببين : أولهما العلاقة الطبيعية الحيوية والآخر العلاقة القومية والسياسية . وكان من نتائج هذا الاهتمام أن الملك مينا وحد الوجهين البحرى والقبلى حوالى سنة ٣٢٠٠ ق . م ولما شعر الجزء المتحد من الوادى بقيمة هذا الاتحاد

وثماره ، ابتدأ الشعب والحكومة يتعاونان على وجوب ضم شمل شتات باقى أجزاء الوادى ، فأرسل هذا الملك حملة إلى شمال النوبة لكى يؤمن حدودها من غارات القبائل المتبربرة الضاربة على أطراف الصحراء من الشرق ، وكذلك فعل الملك زوسر ، فقد أخضع القبائل الثورية شمال النوبة ، ومد حدود مصر إلى الجنوب ، فبلغ بها بلدة المحرقة من أقاليم النوبة السفلى ، حيث استطاع أن يوقف أملاكا من تلك البقاع على معبد (خنوم) رب الشلال وحامى منابع النيل .

وفى سنة ٢٩٠٠ ق.م أرسل الملك سنفرو حملة إلى تلك البلاد تمكنت من الوصول إلى دنقلة ، أو ماوراءها من الوديان التى تكثر فيها المراعى والزروع وتنتشر فيها الماشية والأنعام . ومما يدل على أن هذه الحملة لم تكن عدائية أن الملك زوج أحد أحفاده بأميرة من نساء النوبة ، وهذا يبين لنا أن العلاقات بين شق الوادى لم تقم يومئذ على فكرة الاستعمار والإذلال ، إنما قامت كلها على أسس من الود والقربى .

٤ — وتستمر العلاقات بين شق الوادى كما تشير أكثر الصور والرسوم على آثار الأسرتين الرابعة والخامسة . وعلى الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فى أوائل أيام الأسرة الخامسة وأوساطها لم يفت ملوكها أن يلتفتوا إلى أقاليم الجنوب ، يشير إلى ذلك تسجيل اسم فرعون مصر «أوسركاف» على صخور النوبة . كما أنفذ خلفه «سحورع» أسطولا إلى بلاد «بنت» ، عاد منها محملا بمقادير ضخمة من مخلوط الذهب والفضة ومن خشب الأبانوس والبخور والعطور ، وكانت من مستلزمات إقامة الطقوس الدينية فى المعابد المصرية ، وفى أيام هذا الفرعون سجل رجاله أوفى قدر من المخلفات الكتابية والرسوم على صخور النوبة ، مما يشير إلى

كثرة ترددهم على تلك البقاع . كذلك تشير « متون الأهرام » عند المصريين من الأسرتين الخامسة والسادسة — وهى أقدم ما يعرف من آدابهم الدينية — إلى أنهم قد كانوا يعتبرون النوبة جزءا لا يتجزأ من مصر ، فهم قد جعلوا معبودها . ضمن معبوداتهم المصرية .

٥ — وفى حوالى سنة ٢٨٠٠ ق.م أخذت العلاقات تقوى وتزداد بين القطرين الشقيقين ، حيث نجد سوق التجارة قد راجت بين شمال الوادى وجنوبه عن طريق القوافل ، التى كانت تخترق الصحراء حاملة العاج والذهب والأبانوس من السودان إلى مصر ، وحاملة المحصولات الزراعية من مصر إلى السودان . ولتسهيل الطريق المائى (النيلى) بين القطرين نجد أن الملك « مرنرع » فى حوالى سنة ٢٥٧٠ ق . م يأمر أحد كبار موظفيه المختصين بحفر خمس قنوات عند مناطق الشلالات .

٦ — ولقد كان توحيد شمال الوادى وجنوبه سبباً فى تسهيل رحلات نهرية استكشافية كقيام « خوف حور » أحد أمراء أسوان بأربع رحلات إلى السودان فى عهد الملك « مرنرع » ويعتبر هذا الأمير الكاشف الأول لمجاهل الأصقاع الواقعة فى وسط إفريقية ، فقد وصل فى رحلته الأخيرة وادى حلفا ، ثم وصل دارفور ثم كردفان ثم الكنغو .

٧ — ومنذ أيام الدولة القديمة الفرعونية نسمع بسلطان حاكم الجنوب يدير شئون أقاليمه من إدفو إلى أقصى مابلغ المصريون من جنوب الوادى ، وكان مقره فى جزيرة فيلة ، وكان يختار من رجال الدولة القادرين ، الذين يلمون بلهجات القبائل السودانية ، ليكون بمثابة حلقة الوصل بين أهل الشمال وأهل الجنوب وتدبير جميع شئون التجارة والإدارة والسياسة .

(ب) فى عهد الدولةالوسطى :

١ — ولما اضطربت أمور مصر فى أواخر أيام الدولة القديمة ، وأصيبت بالانحلال السياسى ، أهمل شأن الجنوب . وكان من جراء ذلك أن أغارت قبائل الزنوج على السودان الشمالى ، وغلبت أهله على أمرهم ولكن مالبثت أن نهضت مصر مرة ثانية على يد أحد أبناء الصعيد (أمه من نساء النوبة) وهو (أمنمحات) الأول مؤسس الدولة الوسطى الفرعونية ، فأعاد إلى مصر الفرعونية وحدتها للمرة الثانية حوالى سنة ٢٠٧٠ ق . م . وكان هذا العصر استمرارا فى تقدم الحضارة والمدنية والعلوم ، واطرادا فى تطور ما وصلوا إليه فى عصر الوحدة الأولى . وقد ولى هذا الملك وجهه شطر الجنوب ، وأخذ يؤمن حدوده ويعيد إليه استقراره ، كما سجل ذلك وزير ماليته على جرانيت أسوان .

٢ — وسار ابنه (سنوسرت) على نهجه من بعده ، فبعث حملات إلى بلاد النوبة ، ودنقلة ليطهرها من الفتن ، وليؤمن حدودها . ونظراً لاهتمام هذا الملك بشئون السودان عين له حاكما عاما ، وبلغ من إعزاز هذا الحاكم للسودان أنه بالرغم من وجود مقبرة له فى أسيوط — مسقط رأسه — إلا أنه آثر أن يدفن فى مقر عمله ببلدة كرما الواقعة بالقرب من الشلال الرابع ، مما يدل على أن مصر والسودان كانت وطنا واحداً فى نظره .

٣ — وفى عهد الملك (سنوسرت الثالث) حوالى سنة ١٨٨٧ ق . م حفرت قناة فى النيل فى مناطق الشلال الجرانيتية بعد أن تهدمت تلك التى حفرها الملك (مرنرع) فى عهد الدولة القديمة . فضمن هذا الملك

بتجديده القناة استقرار الصلة بين مصر والسودان ، وسميت هذه القناة « الطريق سنوسرت الجميل » . وظلت هذه القناة مستعملة إلى عهد الملك (تحتمس الثالث) . وزيادة فى تأمين حدود السودان أقام (سنوسرت الثالث) حصنين متقابلين أحدهما فى سمنة (جنوبى وادى حلفا) والآخر فى قمة . كما أقام عدة قلاع لصد غارات الثائرين ، ولإمكان مراقبة جميع الطرق الموصلة إلى وادى النيل ، للذود عن كيان الوادى وحفظ سلامته. وهذه القلاع كانت تكون سلسلة من أربع عشرة بلدة محصنة تمتد من هاتين القلعتين جنوب الشلال الثانى ، وتمتد شمالا إلى أسوان .

٤ — وقد اقتضى تبادل المنفعة بين مصر والسودان أن يضع الملك (أمنمحات الثالث) حوالى سنة ١٨٠٠ ق . م مقاييس للنيل فى بلدة سمنة السالفة الذكر للتعرف بها على أحوال النيل من حيث ارتفاع أو انخفاض مياهه . وجعل من هذه المقاييس فضلا عن فائدتها للرى معياراً لرخاء ذوى الأراضى الزراعية ، وأساسا للنظام المالى تجبى بمقتضاه الضرائب .

(حـ) فى عهد الدولة الحديثة :

١ — استمرت العلاقات الطيبة فى تاريخ البلدين تزداد وتقوى حتى نهاية عصر وحدة مصر الثانية أى حوالى سنة ١٧٥٠ ق . م وظلت مصر محتفظة بعظمتها حتى شعر رجال الجيش وحكام الأقاليم بقوتهم فأخذوا يتعدون عن العرش ، ويحاول كل منهم الانفراد بالسلطة والجاه . وبدأ التشاحن والتنازع بينهم ، وقد أدى ذلك إلى ضعف مصر فداهمها العدو المعروف فى التاريخ باسم الهكسوس واستولى على جزء كبير منها وكان ذلك حوالى سنة ١٧٣٠ ق . م .

وظل الأجنبي يستعمر مصر حوالى قرن ونصف قرن ، إلى أن نهض أحد أمراء طيبة وهو الملك (أحمس الأول) فتمكن من طرد المستعمرين الأجانب حوالى سنة ١٥٨٠ ق . م . وعادت مصر للمرة الثالثة إلى مجدها القديم بفضل وحدتها ، واتصل حبل العلاقات بين مصر والسودان من جديد فى صورة رائعة .

٢ — وللخلفائه من ملوك الأسرتين ١٨ ، ١٩ جهود جبارة موفقة معاً فى المحافظة على كيان الوادى أو العمل على رفاهية مصره وسودانه فأنزلوا كثيرا من الأسر المصرية أقاليم السودان . ونجد أن منصب حاكم السودان العام يعاد ويضاف لشاغله لقب الابن الملكى للسودان ومعنى ذلك أن حاكم السودان مقرب من الملك وله شرف الاتصال بمليك الوادى ، وفى هذا اللقب إشارة جليلة وجلية إلى إظهار عدم تفريق ملك الوادى بين مصر والسودان من جهة الحكم والإدارة ، كما فيه شعور واحد لأهل السودان بأن ملك مصر قد أرسل لهم من هو فى حكم ابنه ليدير دفة شئون البلاد الشقيقة ، وكان من اختصاص هذا الحاكم تصريف الشئون الإدارية والإشراف على المسائل القضائية والمالية وتنجيم المعادن (الذهب) . وعليه أن يمد مصر بالذهب والماشية والصمغ .

٣ — وحرص ملوك هذه الدولة على إنشاء بلادمصرية بالسودان ، كما أكثروا من دور العبادة المصرية فيه وعلى الأخص الإله (آمون) رب أرباب الوادى الذى أسموه صاحب أقاليم الذهب . وقد أقام الملك تحتمس الثالث معبدا على نسق معبد الكرنك لعبادة الإله آمون فى بلدة نباتا بالقرب من الشلال الرابع .

وليس أدل على اهتمام فراعنة الأسرة ١٨ بالسودان ، وتقديرهم لجهود من تقدمهم فى العمل على توطيد أركانه من أنهم أمروا بعبادة سنوسرت الثالث صاحب السودان الأول كما عبد خلفه رمسيس الكبير فى معابد السودان بعد ذلك بقرون .

٤ — وكانت مظاهر الوادى كله مصبوغة بصبغة واحدة هى الصبغة المصرية ، فنجد على سبيل المثال فى مقبرة (حوى) حاكم السودان العام فى عهد الملك توت عنخ آمون رسما يمثل وفدا سودانيا حضر إلى مصر يحمل الهدايا لمليك الوادى . ويلاحظ على أعضاء هذا الوفد أنهم كانوا يرتدون الملابس المصرية ، أى إنهم كانوا مصريين فى حياتهم الخاصة وحياتهم العامة ، وبذلك استوى الشعبان المصرى والسودانى فى النهضة والرقى . كذلك لما زار الملك (حور محب) السودان حوالى سنة ١٣٠٠ ق . م وعند رجوعه نراه ممثلا على جدران معبد جبل السلسلة محمولا على أكتاف صفوف من جنوده ويتقدم هذه الصفوف فريق من فرق الجيش السودانى . وهذا يرينا إلى أى حد امتزج السودانيون بالمصريين ، واشتركوا فى أعيادهم وحفلاتهم على اعتبار أنهم شعب واحد لوادى النيل . ويقول المؤرخ برستد : « الواقع أن السودان قد أصبح فى عهد الدولة الحديثة جزءا لا يتجزأ من مصر ، وساد الأمن والرفاهية تلك الربوع تحت إمرة الأمراء المصريين الذين حلوا محل الأمراء الوطنيين عند نهـــاية عهد الأسرة ١٨ » .

حدود مصر الجنوبية
في
عهد تحتمس الثالث

(ى) فى عهد تسلط النفوذ الأجنبى :

١ — لما ضعفت امبراطورية الوادى ، وسيطرت على مصر أسرة ليبية فى حوالى سنة ٩٤٠ ق . م انقسمت مصر إمارات صغيرة ، وأخذ الأمراء يكافح بعضهم بعضا ، والتجأ كهنة آمون إلى السودان لأنهم أبوا أن يخضعوا لسلطان الليبيين ، وأخذوا ينشرون الحضارة فى ربوع السودان وأقام كبيرهم فى نباتا ملكا جديدا ، وجعل من نفسه وارثا شرعيا لعرش فرعون . وامتدت مملكة نبتة من أسوان شمالا حتى النيل الأزرق جنوبا ، وكانت هذه المملكة صورة طبق الأصل لإمارة آمون بطيبة . وظل ذلك الملك ينتقل من السلف إلى الخلف حتى آل إلى الملك الشاب بعنخى ، ويتراءى له أن يسترجع بقية الوادى من الغاصبين فسار إلى الشمال على رأس جيش قوى ، وقدر له أن يجلى الغاصب عن شمال الوادى ، فرد على الوادى وحدته سنة ٧٤٠ ق . م . واشتهر بعنخى بمبانيه العظيمة التى ما زالت آثارها باقية فى معبده فى (جبل البركل) . وكذلك هرمه الكبير فى الكرو . وكان بعنخى أول من استعمل الهرم حلية لقبره من ملوك نبتة ، وذلك بعد أن ترك الفراعنة استعمال الهرم بقرون عديدة .

٢ — وفى عهد خلفه نقلت العاصمة إلى الأقصر . ولما أصبح طهراقا ملكا سنة ٦٨٨ ق . م غزت آشور مصر ، ولم يستطع هذا الملك صد الزحف الأجنبى عن شمال مملكته ، فانسحب جنوبا تاركا الدلتا تحت رحمة الأشوريين . وما كاد آشور حادون ينسحب إلى عاصمة بلاده بعد أن أقسم له أمراء الدلتا يمين الطاعة حتى بادر أولئك الأمراء إلى الحنث بيمينهم ، ودعوة فرعون الوطنى طهراقا لاستعادة سيطرته على الدلتا .

ولكن الآشوريين عادوا فأخضعوا الدلتا مرة ثانية بعدأن اندحر جيش (تاتون آمون) بين طهراقا سنة ٦٦١ ق . م . وانسحب ملوك نباتا إلى أقصى جنوب الوادى ، فكان ذلك خاتمة سيادتهم على الشمال .

٣ — كانت آثار العهد النبتى وحضارته وثقافته مصرية خالصة . وامتاز العهد بوجه خاص بعمل الأهرامات التى سبق أن ذكرنا بعضها . ونجد فى غير العاصمة آثار هذه الدولة من معابد ومبان فى مصر العليا وفى النوبة الشمالية وفى الكوة حيث ينسب أكبر معابدها إلى طهراقا .

٤ — ولما انفصلت مصر عن أثيوبيا (مملكة نبتة) باستيلاء آشور على مصر ، انقطعت العلاقات بين البلدين ، وعلى مر الأجيال أصبحت حضارة مملكة الجنوب تقليداً مشوهاً لحضارة مصر وكذلك أخذت أهمية نبتة التجارية تقل وتضمحل . فى نفس الوقت أخذت مدينة مروى تنتعش وخاصة بعد أن هاجر إليها فرع من فروع عائلة نبتة المالكة . أخذ هذا الفرع ينازع فرع نبتة فى الملك ، ومنذ سنة ٣٠٨ ق . م نجد كل فرع ينصب ملكه ويدعى له ملك أثيوبيا ، وفى النهاية تغلب فرع مروى وانتقل الملك إليهم ، وبقيت نبتة عاصمة دينية .

٥ — وبانتقال الملك لمروى دخل السودان فيما سمى بالعهد المروى الذى امتد زهاء ٦٠٠ عام (٣٠٠ ق . م — ٣٥٠ م) وكان من أهم عهود تاريخ السودان . وفى هذا العهد استمرت الصبغة المصرية تتلاشى وأخذ السودان يتأثر تدريجياً بحضارات الأمم التى احتلت مصر من فرس وإغريق ورومان . ولما نسيت الكتابة المصرية ابتكرت كتابة نوبية عرفت بالخط المروى لم تحل طلاسمها بعد . وما زالت آثار مروى موجودة ، فبالقرب من قرية البجراوية نجد بقايا معبد آمون الرائعة وهو بناء عظيم ،

وتدل آثاره على أن جدرانه كانت مزينة بالنقوش الجميلة ، وبعض عمده ومحرابه مازالت قائمة ، وبالقرب من المعبد بقايا القصور الملكية وحمام السباحة الملكى تزينه التماثيل والصور وغيرها من النقوش والرسوم . ونجد كذلك على مسافة تقرب من الميل شرقا من مروى معبد الشمس الذى ذكره هيردوتس الإغريقى . أما أهرام هذه الدولة فتقع على بعد ثلاثة أميال من وسط العاصمة ، ولا تزال حيطان بعض هذه المعابد المتصلة ببعض الأهرام قائمة ونقوشها وزخارفها بحالة جيدة .

ومن المواضع الأثرية الهامة فى مملكة مروى النقعة والمصورات ، ففى الأولى نجد بقايا معابد لاتزال حافظة لرونقها ؛ منها معبد صغير مكون من بهو ذى أعمدة طويلة وبرجين وخلف البهو حجرة واحدة وأمامه بقايا دهليز . وقد نقشت على البرج الجنوبى صورة ملك من ملوك مروى ، وعلى البرج الشمالى صورة ملكته . وبالقرب من هذه معبد آمون ، وهو مبنى على الطراز المصرى الخالص . وفى الثانية نجد مبانى مختلفة تشغل مساحة كبيرة بنيت من الحجارة المنحوتة ، وقيل إنها كانت مصحة أوديرا ، وربما كانت كلية أو قصراً ريفياً لأحد الملوك . وبالقرب من قرية المصورات نجد مستودعات لحفظ المال ، وهذان المستودعان يمثلان غيرهما من المستودعات التى كانت مازالت قائمة فى مديريتى كسلا والشمالية .

٦ — عاصرت حكومة مروى الفرس والبطالمة والرومان على مصر ، واشتبكت مع هؤلاء فى حروب تتفاوت درجاتها . وكان الرومان يعتبرون السودان فى عداد ممتلكاتهم حيث تبادلوا معهم التجارة . وظلت مروى تسيطر على شئون السودان مدة من الزمن طويلة ، حتى أخذت تتوالى عليها هجمات سود جبال النوبا حيث احتلوا بعض بلاد مروى فقطعت

مدنيتهم المتأخرة على مدنية مروى . ثم تعرضت مروى كذلك إلى ضربات البجة من الشرق ، وإلى غزو قوم يدعون (النباط) من جهة الشمال الغربى ، ونتيجة لهذه الغزوات اختل ميزان البلد الاقتصادى وساء موقفها السياسى ، فانقسمت إلى قسمين فى نهاية القرن الثانى الميلادى . فكان القسم الشمالى يحكم من نبتة والجنوبى من مروى ، وعلى القسم الجنوبى انقضت دولة أكسوم الحبشية حوالى سنة ٣٥٠ م وحطمت مدينة مروى ثم سارت الجيوش جنوبا فخربت مدينة علوة ، ورجع جيش أكسوم مكتفياً بضم الأجزاء الشرقية من مملكة مروى لملكه .

وبتخريب مروى على هذا الوجه انتهى العهد المروى ودخلت بلاد السودان فى طور تفكك واضطراب لا حد له .

٧ — وجدير بالذكر أن أهل الجنوب (مملكة الجنوب) عند ما انفصلت عن مصر على نحو ما ذكرنا كان يحز فى نفوسهم خضوع أشقائهم فى الشمال للحكم الأجنبى . وأبلغ دليل على ذلك ، وعلى قوة الرابطة بين الفريقين فى الإخاء والحضارة والمشاعر ، أنه عندما ثار المصريون على عسف البطالمة وإرهاقهم ، واشتعلت نيران الثورة فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها على عهد بطليموس الرابع والخامس ، مد لهم أهل الجنوب يد المساعدة إلى حد أنه قد تزعم ثورة المصريين فى منطقة طيبة أميران نوبيان ، وأفلحت هذه المنطقة فى الانفصال عن ملك البطالمة فترة دامت عشرين عاما ، كانت خلالها تحت إمرة الأميرين النوبيين سالفى الذكر . ويذكر أحد المؤرخين أن ملك دولة الوادى الجنوبية فى ذلك الوقت لم يدخر وسعاً فى مساعدة ثورات المصريين على البطالمة .

٨ — وعندما غزا الرومان مصر هب الوجه القبلى ثائراً فى وجههم بمساعدة إخوانهم أهل الجنوب . وما كادت الفرق الرومانية تصل إلى أسوان حتى انقض النوبيون عليها كذلك . وعندما علم أهل الجنوب بما صادف حاكم مصر الرومانى فى عام ٢٥ ق . م خلال حملته فى بلاد العرب ، انتهزوا هذه الفرصة لغزو منطقة طيبة فاستولوا على أسوان وفيلة فأرسل ضدهم أغسطس حملة ردتهم على أعقابهم ، وتوغلت فى بلادهم جنوبا حتى نباتا حيث خربتها .

(ثانياً) الممالك المسيحية فى السودان :

١ — كما وفدت على السودان وثنية مصر ، فقد وفد عليها كذلك الدين الجديد ، الذى كانت مصر فى مقدمة البلاد التى اعتنقته (منذ حوالى أواسط القرن الخامس الميلادى) وأعنى المسيحية . فإن المسيحية لم تدخل السودان عن طريق الحبشة وإنما عن طريق مصر . وتتضح الصلة الوثيقة بين مسيحيي شمال الوادى وجنوبه من أن مسيحيي الجنوب كانوا من أتباع مذهب اليعاقبة ، الذى كان له الغلبة فى الشمال . بيد أن المسيحية لم تصبح دين أثيوبيا الرسمى إلا حوالى منتصف القرن السادس . ولم تكن المسيحية إلا أحد مشاعل الهداية والعرفان ، التى تلقفها السودان قديماً عن مصر . وهكذا لم يكد ينقضى القرن السادس حتى كانت النوبة والمقرة وعلوة قد تنصرت . وبقى البجة فى جملتهم على ما كانوا عليه من وثنية . وفى البلاد التى تمسحت استطاع رجال الكنيسة أن يجعلوا من اللغة النوبية لغة كتابية بالحروف الإغريقية ، واستعملوها فى أعمالهم الدينية ، كما ترجموا أجزاء من الكتاب المقدس إلى اللغة النوبية . وكذلك استعملت اللغات الإغريقية والقبطية فى المراسم الدينية . ودخلت الكتب القبطية بلاد النوبة على

مملكتا الشمال والجنوب
في
عصر البطالمة

مملكة الشمال (مصر)

مملكة الجنوب (أثيوبيا)

البحر الأبيض المتوسط

ايدى القسس القبط والرهبان . واتصلت البلاد بالإسكندرية مقر عاهل المسيحية فى مصر .

٢ — وعندما دخلت المسيحية السودان كان فى شمال السودان ثلاث ممالك تنصرت ، وكان الدين الجديد من أهم عوامل تحضير وتوحيد فما ل مالبث أن أعاد للبلاد استقرارها ، وهذه الممالك هى :

(ا) مملكة النوبة وكان حدها من أسوان إلى كرسكو ، وهى على بعد ستين ميلا شمالى وادى حلفا وعاصمتها فرس ، وهى أولى بلاد السودان فى اعتناق هذا الدين .

(ب) ويليها جنوباً مملكة المقرة ، وقد تسمى مملكة دنقلة أيضاً ، وعاصمتها دنقلة . وكانت بلدة أبو حمد تقريباً حدها الجنوبى الذى يفصل بينها وبين مملكة علوة .

(حـ) ويلى المقرة مملكة علوة وتسمى أيضاً مملكة سوبا باسم العاصمة وكانت عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق ، وكانت مملكة عظيمة وبها جيش وأعمال واسعة ، وفيها أربعمائة كنيسة ، وجميع من بها نصارى يعاقبة وقد وجد آثار لهذه المملكة فى القبطية وبرى وغيرهما[1] .

٣ — ولا نعرف على وجه التحقيق متى ولماذا انقسم المسيحيون إلى هذه الممالك ، ولكن من المعروف أن مملكة النوبة كانت أقصر الممالك عمراً . والظاهر أن فتح العرب لمصر ، وضغط القبائل العربية على هذه المملكة من الشمال ، والخلافات التى كانت بينها وبين مملكة المقرة ، كل ذلك قد عجل بالقضاء عليها .

---

(١) أديرة كنائس مصر ١٢٠ .

وأغلب الظن أن عبد الله بن سعد عندما قدم إلى السودان الشمالى سنة ٦٥١م كانت مملكة النوبة قد اندمجت فى مملكة المقرة، وأصبحت دنقلة العاصمة[1] . على أن اشتداد الضغط على مملكة المقرة الواسعة ، ازداد بمرور الزمن ، حتى أصبحت لا تقوى على مُقاومة النفوذ العربى الإسلامى وانمحت نهائياً حوالى سنة ١٣٢٠ م ، وظلت مملكة علوة وحدها تصارع النفوذ الإسلامى فترة طويلة حتى خربها الفونج فى أوائل القرن السادس عشر .

٤ — وعلى الرغم من أن المسيحية قد دخلت السودان حتى أعالى جزيرة سنار ودخلت الكتب المقدسة وشاع استعمال اللغة الإغريقية والكتابة الإغريقية فى أغراض الدين المختلفة ، كما شاعت لغة الأقباط فى الكنائس وكانت الإسكندرية تبعث للنوبة بمطارنتها من قبل بطريق الأقباط بالإسكندرية ، على الرغم من هذا كله فقد بقيت الديانة المسيحية دين الطبقة الحاكمة والسكان الحضر وحدهم ، ولم تتغلغل فى السودان . وكان قسسها ولغتها وكتبها تصل من الخارج ، ولذلك لم يجد أهل السودان المسيحيون من يرشدهم إلى أمور دينهم لما أن سقطت مصر فى قبضة المسلمين ، وانقطعت الصلة بينهم وبين مصر . ولما سقطت دنقلة العجوز فى يد العرب نهائياً واعتنق ملوك المقرة الدين الإسلامى كان ذلك نهاية الدين المسيحى رسمياً فى السودان ، وإذا انقطعت المقرة عن أى تأثير خارجى وأصبح ما بقى من المسيحية ضعيفاً لا يؤبه به رقيقاً ما لبث أن تلاشى واختفى حتى بين السكان الذين كانوا يعتنقونها .

---

(١) كراوفورد ٢٣ .

النوبة

المقرة

علوة

(ثالثاً) الهجرات العربية إلى السودان قبل الإسلام :

كان للهجرات العربيـــة إلى السودان منافذ فى الشرق والشمال والشمال الغربى .

(١) فمن الشرق نزحت بعض القبائل العربية ، وسكنت على الساحل الشرقى المقابل للجزيرة العربيـة ، أو تجاوزته إلى السودان الأوسط والسودان الغربى أيضاً .

(٢) ونزح بعضها من الشمال عن طريق وادى النيل ، وهو الذى أدى إلى تكوين القبائل العربية التى تعيش حول نهر النيـل فى شمال السودان ووسطه .

(٣) ونزح بعضها من الشمال الغربى أو الطريق الليبى ، الذى كان مصدراً لكثير من الهجرات القديمة والحديثة . وبذلك كان لهذه الهجرات ثلاث منافذ رئيسـية لعل أقدمها طريق الشرق ، ثم طريق الشمال ، أما الطريق الثالث وهو الليبى فلعله لم يكن مصدراً للثقافة العربية إلا بعد الإسلام .

وقد ذهب بعض الكتاب إلى أن السودان لم يعرف العروبة إلا منذ خمسة قرون مضت أو أكثر قليلا. أما قبل هذا التاريخ فقد كان السودان لا يعرف إلا العناصر الزنجية والحامية ، وغيرهما من العناصر الإفريقية . فكأن أصحاب هذا المذهب يرون أن السودان عرف العروبة والإسلام فى وقت واحد تقريباً . وهذا الزعم خاطىء لأن « ما كايكل» فى تاريخه ذكر أن العروبة كانت معروفة فى مناطق سودانية أو قريباً منها قبل الإسلام بعدة قرون » . . فالتجارة منذ أقدم العصـور كانت معروفة متداولة بين بلاد العرب وموانى مصر والسودان والحبشة إذ ازدهرت بينهم تجارة

الصمغ والعلك واللبان والعاج والذهب، أضف إلى ذلك ما يراه بعض الباحثين من أن الغزاة الذين وفدوا على مصر وحاربوها وعبدوا فيها الإله (هورس) كانوا فى الحقيقة عرباً دخلوا إلى إفريقيـة من طريق «مصوع» كما ذكر ما كمايكل آثار العروبة فى بلاد الحبشة فى عصور ماقبل الإسلام[1] فقال: «وكانت عبادة الشمس قبل ميلاد المسيح مزدهرة فى جنوب بلاد العرب وبين عرب حمير الذين استعمروا شمال الحبشة . وهذه العبادة ظهرت آثارها باقية فى تلبيس (الكلابشة)[2] حتى زمن جستنيان ، وهذا مما يدل على وجود صلة ما بين حمير ، وبلاد النوبة فى تلك العصور»[3] . وتزعم رواية عربية أن أحد ملوك حمير ، وهو أبو مالك قام بحملة على بلاد البجة رغبة فى الحصول على بعض المعادن الكريمة . ولكن جيشه هلك وربما وقعت حوادث هذه الرواية فى خلال العقود الأولى بعد ميلاد المسيح . ولاحظ عدد من الباحثين أن هنالك بعض الأماكن على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر أو قريبة منه تحتفظ بأسمائها العربية الدالة على نظائر لها فى بلاد العرب مثل : نجران التى كانت الاسم القديم لمملكة بلو (فى شرق السودان)[4] ، وغيرها من الأسماء كثير .

وأيد الدكتور عوض فكرة قدم العروبة بالسودان بقوله : «من الخطأ ما يذهب إليه بعض الكتاب من أن انتشار العروبة فى السودان لم يبدأ بصفة جدية إلا بعد إتمام فتح مملكة دنقلة فى أوائل القرن ١٤ م أى إنه لا يرجع إلى أكثر من خمسة قرون مضت ، فإن أصحاب هذا الرأى يتوهمون أن انتشار العروبة لا يتم إلا بعد تأسيس دولة عربية ، فيخلطون

---

(١) ماك ١ / ٦ — ٧ . (٢) منطقة أثرية جنوب أسوان .
(٣) ماك ١ / ٩ (٤) عوض ١٢١ — ١٣٢

بين السياسة والعروبة . فاللغة المصرية القديمة قد انطبعت بالطابع السامى فى زمن قديم جداً ، وهذا الطابع كان مصدره الجزيرة العربية ولابد أنه كان نتيجة هجرات قديمة إلى وادى النيل . . . »[1]

فالراجح بعد ذلك أن السودان قد عرف الجنس العربى قبل أن تظهر الدعوة الإسلامية فى بلاد العرب بعدة قرون . ومعنى هذا أن الثقافة العربية الجاهلية قد عرفها السودان قبل أن يعرف الثقافة العربية الإسلامية .

(١) ص ٣٣ — ٣٥

الفصل الثانى

تحول السودان إلى أمة عربية إسلامية

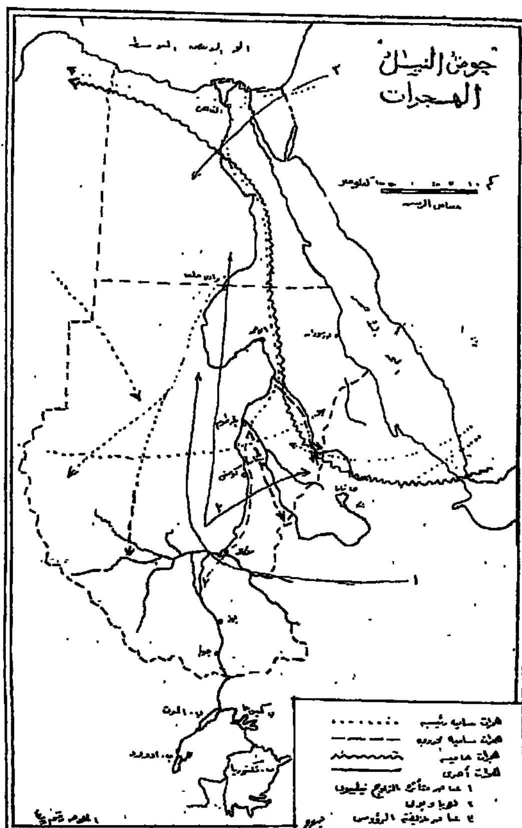
١ ــ طرق وصول الإسلام إلى السودان :

(ا) عرفنا فى الفقرة الأخيرة من الفصل السابق شيئاً من الهجرات العربية إلى السودان قبل الإسلام . ولما ظهر الإسلام فى القرن السابع الميلادى وفتحت مصر فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب ، أخذت القبائل العربية تهاجر إليها بانتظام واستمرار حيث سكنت حوافى الدلتا أولا ثم انتشرت فى جهات القطر المختلفة بعد ذلك ، ونظراً لأن الحياة كانت ميسرة فى مصر ، وأن القبائل العربية لم تكن بحاجة إلى أن تترك مصر فى عهد الفتح ، استقرت هذه القبائل فى جميع أنحاء القطر حتى العهد المملوكى ، فضلت قبائل كثيرة أن تبتعد عن قوة سلاطين المماليك المركزة فى الشمال ، وأن تتحرك بعيداً عنها فى الجنوب ، كما رأى المماليك أن الوقت قد حان لبسط نفوذ الإسلام فى هذه الجهات . لكن هذا التوسع كانت تعترضه عقبتان : أولاهما قبائل البجاه الحامية التى كانت تسكن الصحراء جنوب شرقى مصر وشرقى السودان . والثانية مملكة النوبة المسيحية التى كانت قائمة فى الجزء الشمالى من السودان ، وسنعرف فى الفقرات التالية كيف تغلب العرب على هذه العقبات .

(ب) وبسقوط مملكة النوبة المسيحية فى القرن الرابع عشر دخلت علاقة مصر بالسودان فى دور جديد ، اختلطت فيه الأصول والأنساب

اختلاطاً يصل إلى درجة الاندماج وأصبحت الأسر السودانية تتصل أنسابها بأولاد عمومتها وخئولتها فى صعيد مصر بوجه خاص ، بعد أن اندفعت القبائل العربية المسلمة نحو الجنوب فى موجات متلاحقة سالكة طريق وادى النيل ، الذى يرجع إليه الفضل الأكبر فى تعريب السودان وفى نشر الثقافة الإسلامية فيه ، إذ لا يسجل التاريخ — فى أى عهد من عهوده — وصول موجات هامة أوهجرات عنيفة إلى السودان عن طريق غير طريق مجرى النيل من الشمال إلى الجنوب .

(حـ) وجاء عن طريق أثيوبيا جماعة قليلة العدد ، فقد عرفنا شيئاً عن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ، وما تبع ذلك من هجرات بسبب حروب الردة ، وغير ذلك من الدوافع . كما أن العرب قد دفعهم هجوم القراصنة فى البحر الأحمر على تجارتهم وعلى الموانى العربية ، إلى احتلال بعض المناطق الاستراتيجية على الجانب الغربى للبحر الأحمر لحماية مصالحهم التجارية من عدوان سكان الجانب الإفريقى . أخذت الجماعات الإسلامية فى التغلغل داخل البلاد ، فى الهضبة الأثيوبية ، وفى حوض وادى النيل الأوسط . كما تمكنوا من إنشاء ولايات إسلامية فى نطاق الوطن الأثيوبى ، وتمكن المسلمون من السيطرة على مرافق التجارة بين داخلية البلاد الأثيوبية ، وحوض وادى النيل الأوسط ، مما أدى إلى حروب طويلة بين المسلمين والأثيوبيين امتدت حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .


حوض النيل
الهجرات
هجرات حامية
هجرات أخرى

(ﺩ) ويجمل بنا أن هنا نشير إلى أنه من المحتمل أن بعض القبائل العربية قد وصلت إلى غرب السودان من شمال إفريقية ، متتبعة الطرق التى كانت تسلكها القوافل وهى تقطع الصحراء الليبية شمالا وجنوباً ، وربما وصل إلى أرض دارفور قبائل عن هذا الطريق ، وكان لهم أثر فى صبغ هذا الإقليم بالصبغة العربية . فإذا تحقق هذا صح ما يقال من أن سلاطين دارفور من سلالة بنى العباس الذين جاءوا من شمال إفريقية ، وعامة أهل دارفور يرجعون أنسابهم إلى الهلالية الذين اشتهروا فى تونس بعد هجرة تلك القبائل إليها ، وأيا كان الأمر فإن ذلك لا يغير من الحقيقة السابقة فى شىء ، ولا يشك فى أن تعريب السودان إنما تم عن طريق هجرات القبائل العربية من الشمال ، ومتتبعة فى معظم الأحوال مجرى النيل .

(ﻫ) على أنه رغم انتشار الإسلام فى السودان ، وتعمير كثير من القبائل العربية لأقاليمه المختلفة ، فقد ظلت شخصيته — حتى الفتح المصرى — مفقودة ، ولم يكون هنالك فى الواقع اسم واحد يمكن أن نطلقه على كل أقاليمه . فنظام العرب نظام قبلى يشجع الانفصالية والانعزال ، ودخول الإسلام فى السودان لم يتم بطريق الفتح المنظم الذى كان يعتمد على سلطة مركزية تفرض قوتها وسلطانها على السكان ، وإنما تم على أيدى قبائل مختلفة وفى فترات متعددة ، وكان هم كل قبيلة أو مجموعة من القبائل أن تبسط سلطانها على إقليم معين ، تنفرد به وتعيش فيه ، وما يعنيها بعد ذلك أن تتحد مع غيرها ، أو تبذل مجهوداً مشتركا لتنظيم حكم البلاد .

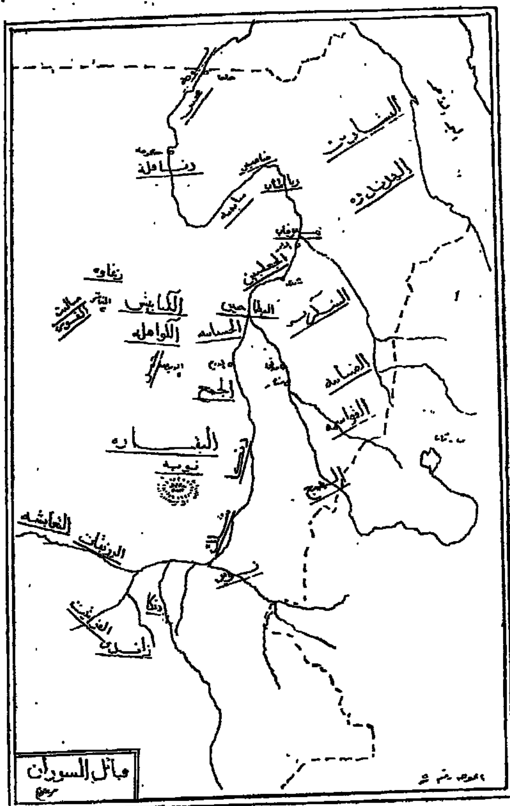
(و) وجدير بالذكر أن العرب بقسميهم الكبيرين (القحطانى والعدنانى) دخلوا السودان وينتسب إلى القحطانيين فى السو ان قبيلة جهينة كما ينتسب الجعليون إلى العدنانيين .

والمجموعة الجعلية تشمل . الجعليين والميرفاب والرباطاب والمناصير والشايقية والركابية والمجموعية وأتباعهم والبديرية والجوامعة والبطاحين . وهؤلاء كانوا أقل بداوة من العرب الجنوبيين .

والمجموعة الجهينية تشمل قبائل رفاعة وأقرباءها القواسمة والعبدلاب والعركيين واللوحيين ، والشكرية ، وهذه سكنت البطانة وحوض النيل الأزرق . وفزارة والبقارة والكبابيش والحمر ، وهذه سكنت كردفان ودارفور . وكانوا أهل رعى .

(ز) ولما استقرت القبائل العربية فى شمال وشرق ووسط السودان تمكنت ثقافة العناصر الوطنية من أن تطغى على العنصر العربى . فعلى الرغم من أن الناس أخذوا يقسمون أنفسهم إلى قبائل على عادة العرب ، إلا أن لغة البجة سادت فى الشرق كما سادت النوبية فى بلاد النوبة ، وكان هذا إلى وقت محدود حيث تقربوا بمرور الزمن والبجة انقسموا إلى قبائل الهدندوة والأمرار وبنى عامر والحلنقة وفى الشمال أصبح السكان ينقسمون إلى محس ودناقله وبرابرة . وفى دارفور نجد قبائل الزغاوة والبديات وهم من أصل ليبى . والميدوب والتنجور وهم من أصل نوبى ، والفور وأصلهم زنجى . وفى كردفان نجد قبائل النوبة المتعددة .

(ح) أما جنوب السودان فيسكنه الزنوج فنجد النيام نيام والزاندى فى منطقة المجارى العليا لبحر الغزال . ونجد الشلك والأنواك والدنكا والنوير المتأثرين بالدماء الحامية يسكنون السودان (أعالى النيل) . وهؤلاء الزنوج لم يتأثروا بالدماء العربية نظراً لمنع تسرب العناصر العربية إلى السودان (الأماكن المغلقة فى السودان) .


قبائل السودان
دناقلة
الهدندوه
رباطاب
مناصير
الجعليين
الكبابيش
الكواهله
البطاحين
الحسانيه
الشكريه
الجمع
البقاره
التعايشه
الرزيقات
دنكا
زاندى

٢ — الإسلام فى دنقلة :

نحن نعلم أن الغزو الإسلامى الذى بدأه عبد الله بن سعد بحملتين : الأولى سنة ٦٤١ م والثانية سنة ٦٥١ على مملكة دنقلة قد انتهى بمعاهدة اشترط فيها على أهل النوبة (من مملكة دنقلة) : « أن يحفظوا من ينزل بلدهم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنهم ، وأن يردوا كل آبق خرج إليهم من عبيد المسلمين حتى يردوه إلى أرض الإسلام ، ولا يستولوا عليه ، ولا يمنعوا منه ، ولا يتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه ، وأن يحفظوا المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتهم ، ولا يمنعوا منه مصليا ، وعليهم كنسه وإسراجه وتكرمته » . ولكن المحاربين كما يفهم من المعاهدات لم يكونوا يطمعون فى البقاء فى السودان إذ كان من شروطهم : « أن يدخل العرب بلدهم — أى بلاد النوبة — مجتازين غير مقيمين فيه » . كما كان من المبادىء التى أخذت بها السياسة العربية فى هذه الفترة المبكرة ، فى عهد عمر بن الخطاب ، أن يحرم على الجند فى مصر وسائر الأقاليم المفتوحة الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأراضى لئلا يركنوا إلى الكسل ، ويسيطر عليهم حب المال والنعيم . والراجح أن هذه السياسة فى مبدأ الفتح كانت ذات تأثير فى تحديد إقامة المحاربين العرب فى السودان . غير أن هذا المبدأ لم يكن موضع اعتبار ولا تنفيذ فى العصور التالية للفتح ، ولا سيما بعد القرن العاشر ، حين ضعف نفوذ العرب . لذلك أخذ بعض المحاربين منذ عهد الفاطميين يفضلون البقاء فى السودان ، وساعد على بقائهم هناك ضعف الإمارات المسيحية فى بلاد النوبة ، ثم زوالها الأمر الذى دفعهم إلى التدفق على السودان والسكنى فى أنحائه .

كذلك كان السودان ملجأ للهاربين من الضغط السياسى ، فيحدثنا المسعودى المؤرخ بأن عبد الله بن مروان — آخر بنى أمية — هرب إلى السودان بعد أن فقد أخاه وجمعا من أتباعه ، وحدثت هذه الهجرات فى أوقات متفاوتة ، وكان هؤلاء المهاجرون عاملا مهما فى نشر الدين الإسلامى والثقافة العربية .

وظلت المعاهدة التى عملها عبد الله بن سعد سنة ٦٥١ سارية المفعول حوالى ستة قرون بعد ذلك التاريخ .

وفى القرن التاسع الميلادى ازداد التفاهم بين المسلمين والنوبة ، إذ أرسل ملك النوبة المسيحى ابنه (جورج) إلى خليفة بغداد ، وتم هنالك صلح بينهما . وفى القرن ١١ م قامت محاولة لحمل جورج — وكان قد تولى حينئذ ملك النوبة — على اعتناق الإسلام ، ولكنها لم تفلح .

وفى القرن العاشر ازداد عدد القاطنين فى السودان على ضفاف النيل الأزرق من العرب ، وازدادت ثروتهم حتى استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد فى سوبة عاصمة المملكة المسيحية .

وفى عهد الأيوبيين فى مصر أرسل السلطان صلاح الدين حملتين إلى بلاد النوبة لتعقب الفاطميين الذين كانوا قد ثاروا هناك ، وقاموا بهجوم على أسوان ، وفى الحملة الثانية سنة ١١٧٢ استولى الجيش الأيوبى على إبريم وأخذ من المسيحيين الكثير من الأسرى .

استمرت مملكة دنقلة المسيحية قائمة ، وتدين لها الجاليات العربية التى تعيش فى جهات متفرقة من المملكة ، بالولاء ، حتى قدم جيش قلاوون من سلاطين المماليك فى مصر وأسر آخر ملوك دنقلة المسيحيين سنة ١٣١٦

بإيعاز من الأمير النوبى عبد الله بن سنبو وبمساعدته ، وقد تولى هذا على دنقله ، وكان أول ملك مسلم عليها .

غير أن حكم دنقله أصبح منذ ذلك الحين لعبة فى أيدى القبائل العربية فقتل زعيم ربيعة ، ملك دنقلة ، وتوالت حوادث واضطرابات ، وانقطعت الجزية السنوية التى كان قد فرضها العرب المسلمون على أهل النوبة (دينار على كل رأس) ، وتدفقت القبائل العربية على السودان ، ولا سيما جهينة ، فبعضهم سكن فى الشرق ، وبعضهم فى الجنوب الشرقى وبعضهم فى الجنوب الغربى . وتزوجت جهينة الذين سكنوا النوبة من نساء السكان الأصليين ، ونجحوا فى كسر شوكة أمراء النوبة . .

وفى أواخر القرن ١٤ م قدم « غلام الله بن عائد » جد السادة الركابية فى السودان (عن طريق البحر الأحمر) وسكن دنقلة . وكان الإسلام بين الدناقلة إلى ذلك الحين ظاهريا ، حتى استطاع غلام الله وجماعته أن يقووا دعائم الإسلام بينهم . بل هاجر بعض الركابية إلى الغرب وكانوا من أشهر العاملين على نشر الإسلام فى جنوب كردفان . على أن دعوة الركابية قبل القرن ١٦ لم تكن تتعدى نقطة التقاء النهرين ، لأن مملكة علوة المسيحية كانت لاتزال تقف فى طريقها .

٣ — الإسلام وقبائل البجاة :

تحتل قبائل البجة — البجاة — معظم الأجزاء التى تقع على سواحل البحر الأحمر الأفريقية والداخلة فى نطاق السودان . وقد ظلت معظم هذه القبائل رغم ماقام به المبشرون المسيحيون على وثنيتها .

والظاهر أن العرب اتصلوا بالبجاة فى أرضهم أثناء القرن الثامن

الميلادى — عن طريق البحر الأحمر ومصر — فذهبوا إليهم تجاراً ، واجتازوا من مصر بلادهم حاجين ، وهاجروا إلى معادن الذهب والزمرد ، منقبين ومستخرجين . والظاهر أيضاً أن جماعة من العرب المسلمين — وبخاصة عرب بلى — كانوا من أول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم . فهذه كلها مظاهر ومناسبات سلمية مهدت للعرب الاختلاط بالبجاة من السودان ، وكانت من العوامل التى ساعدت فى القرون القادمة على تعريب هذه المنطقة ونشر الإسلام فيها .

غير أن البجاة لم يحافظوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم فى أواخر القرن الأول للهجرة ، وكثرت غاراتهم على جهة أسوان وكثر إيذاؤهم للمسلمين هناك ورفع أمرهم إلى الخليفة المأمون العباسى فأرسل إليهم جيشاً بقيادة عبد الله بن الجهم (٢٢٦ ﻫ) فكانت له معهم وقائع انتهت بموادعتهم وكتابة عهد جديد بينه وبين رئيسهم . ومن أهم شروط هذا العهد ما يلى :

(١) أن تكون بلاد البجاة ملكا للخليفة وأن يكون البجاة ورئيسهم عبيداً له .

(٢) أن يؤدى ملك البجاة الخراج كل عام مائة من الإبل و ٣٠٠ دينار .

(٣) أن يحترم البجاة الإسلام ولا يذكروه بسوء وألا يعينوا أحداً على أهل الإسلام .

(٤) ألا يمنعوا أحداً من المسلمين الدخول فى بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً .

(٥) إذا دخل أحد من المسلمين تاجراً أو مقيما أو مجتازاً أو حاجاً فهو آمن حتى ينزح من البلاد .

(٦) أنه إذا نزل البجاة صعيد مصر مجتازين أو تجاراً لا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال .

(٧) ألا يهدموا شيئاً من المساجد التى بناها المسلمون فى صيحة وهجر .

(٨) أن يدخل رئيسهم عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم منهم .

لم تهدأ أمور السودان بهدنة البجاة السابقة ؛ ذلك لأننا نجد البجاة قد حافظوا على عهدهم برهة ثم امتنعوا عن دفع الخراج وعادوا إلى غزو قرى صعيد مصر وقتلوا من وجدوه بالمدن من المسلمين . وكان ذلك فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢ هـ — ٢٤٧) الذى أرسل إليهم جيشاً تمكن من أن يهزم البجاة سنة ٢٤١ حتى طلب ملكهم على بابا الأمان على شروط منها :

(١) أن يدفع الخراج لما سلف وهو ٤ سنوات كان قد منعها ، ولما يأتى .

(٢) ألا يمنع المسلمين من العمل فى المعادن .

ثم سار على بابا إلى زيارة الخليفة المتوكل فى عاصمة الخلافة العباسية حيث رحب به الخليفة وخلع عليه على الرغم من أن على بابا ما يزال وثنياً . ونتيجة لهذا العهد الأخير واحترام البجاة له تسرب كثير من القبائل العربية إلى أرض البجاة واختلطوا بهم فزاد تبعاً لذلك عدد من أسلم منهم . ولما نجح ابن طولون فى تأسيس دولته بمصر (٢٤٢ هـ) ولى وجهه

شـطر البجاة فغزا بلادهم وأخضعهم وترك وراءه من بنى جهينة وربيعة من أقاموا وأكثروا العمارة . وامتاز عصر ابن طولون باستقرار عرب جهينة وربيعـة فى أراضى البجاة وبتعريب هـذه المنطقة تعريباً جزئياً وبدخول الإسلام نتيجة للتزاوج بين العرب والبجاة — لكن البجاة لم يخضعوا نهائياً لسلطان العرب والمسلمين .

ولمـا كان عصر الدولة الفاطمية فى مصر لم تتأثر بلاد البجاة بمذهبهم الشيعى وظل الأمر كذلك حتى عهد المماليك فى مصر حيث ازداد دخول القبائل العربية للسودان وبخاصة إلى بلاد البجة للعمل فى مناجم الذهب بوادى العلاقى . وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارب إسلاما ضعيفا وظل الحدارب هم الفئة المسلمةالقوية بين البجاة حتى زمن المؤرخ المسعودى (٩٣٥ هـ) وأصبحت الصلة وثيقة بين ربيعة والحدارب بنوع خاص . وظل الحدارب ذوى نفوذ وسلطان فى الأقاليم التى يحتلها بشاريو أم على وعلى الأخص فى الجهات الساحلية ومالبثت أن اندمجت الحدارب فى البشارية اندماجا تاما .

ويظهر أن المسيحية فى الحبشة قد أثرت فى بعض قبائل البجة المقيمين فى الجزء الجنوبى فوجدنا المؤرخ ابن سعيد (١٢١٤ — ١٢٧٨) يذكر أن البجة بعضها نصارى وبعضها مسلمون . وبعد ذلك بأكثر من قرن نجد أن ابن بطوطة يذكر أن مدينتى عيذاب وسواكن عامرتان بالإسلام والمسلمين . وهكذا لم يأت عصر الفونج حتى كان أكثر البجة مسلمين .

٤ — الإسلام فى منطقة بحيرة تشاد (السودان الفرنسى) :

---

(١) يرجع انتشار الاسلام فى هذه الجهات إلى جهود قبائل صنهاجة

الآتية من شمال إفريقية ؛ فقد انتقلت بعض قبائل المغاربة إلى مملكة غانة ودعوا أهلها إلى الإسلام .

ولما ملكوا الزمام فى أيديهم فى القرن ١١م طردوا الأسرة الحاكمة من (الفلاتة) وأسلمت الأهالى على بكرة أبيهم .

(٢) وعلى نهر النيجر الأعلى تأسست مدينتان إحداهما فى القرن ١١ م وهى مدينة (جنى) والأخرى فى القرن ١٢ م وهى مدينة (تمبكتو) . وكان لهما فيما بعد أثر قوى فى تقدم الإسلام وانتشاره فى السودان الغربى .

(٣) وفى الشمال والشمال الشرقى لبحيرة تشاد ، كانت تقع مملكة (كانم) ، التى اعتنق أهلها الاسلام ، وأصبحت دولة ذات أهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقى إلى حدود مصر وبلاد النوبة . ويذكر المقريزى (خطط ١ — ٣١٢) : « أن الروايات الوطنية تعتقد أن مؤسس دولة الكانم هو سيف بن ذى يزن أحد أمراء حمير قبل الإسلام » .

٥ — أشهر الممالك والسلطنات والمشيخات الإسلامية فى السودان :

كانت وحدة السودان منعدمة قبل أوائل القرن ١٩ ، لا تجمع جهود أهله سلطة مركزية ، ولا تنظم شئونه حكومة موحدة قوية ، بل كان الأمر أمر مشاحنات وعداء ، وكانت المطامع الشخصية والمنافسات المحلية هى الطابع الذى يسود كل ربوع السودان فيؤخر تقدمه ، ويشيع فى أقاليمه الفوضى ، وكان يتنازع السلطة فى السودان ممالك وسلطنات ومشيخات إسلامية متعددة ، يكفى أن نشير هنا إلى أهمها إشارة سريعة لنكمل الصورة

ولترى كيف أن السودان مدين بوجوده كوحدة لها كيان ولها شخصية إلى الحكم المصرى فيه :

(أولا) مملكة سنار (الفونج) : حكمت مابين (١٥٠٥ — ١٨٢٠) وكانت تمتد من الشلال الثالث إلى أقصى جبال فازوغلى ، ومن سواكن على البحر الأحمر إلى النيل الأبيض ، وكانت هذه المملكة مقسمة إلى عدة ممالك ومشيخات ، وكان لكل ملك أو شيخ استقلاله مادام يدفع الجزية المقررة لملوك سنار . وقد تقسمت هذه المملكة قسمين ، قسم تابع للفونج وهو الذى كان يقع جنوب بلدة (أربجى) قرب المسلمية ، وقسم يقع شمال هذه البلدة تابع لمشيخة قرى الخاضعة لسلطان الفونج (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب) .

(ثانيا) مشيخة العبدلاب : وهى التى كان مركزها بلدة (قرى) ثم انتقلت إلى الحلفاية فعرفت بمشيخة الحلفاية ، وكان لها السلطنة على جميع الأراضى من أربجى إلى الشلال الثالث .

(ثالثا) الممالك والمشيخات التى خضعت رأسا إلى ملوك الفونج :

(١) مشيخة خشم البحر : قامت شرقى النيل الأزرق بين رنقة والروصيرص ، وكان مركزها (رنقة) ، وقد عرفت بهذا الاسم لأن بحر النيل لايصلح منها جنوبا .

(٢) مملكة فازوغلى : قامت جنوب مشيخة خشم البحر ، وامتدت من الروصيرص إلى قدسى . وكانت عاصمتها (فازوغلى) .

(٣) مشيخة الحمدة : قامت على نهر الدندر ومركزها دبركى .

(٤) مملكة بني عامر : قامت في الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر وخور بركة شرقا وغربا ، وبين عقيق على البحر الأحمر وبلاد الحبشة شمالا وجنوبا .

(٥) مملكة الحلانقة : وهي من البجاة ، ومركزها جبل كسلا على نهر الجاش .

(رابعاً) الممالك والمشيخات التي خضعت للفونج بوساطة العابدلاب :

١ — مشيخة الشنابلة : قامت على النيل الأزرق شمال سنار ومركزها المسلمية .

٢ — مملكة الجعليين : قامت شمال مشيخة العابدلاب ، على أنقاض مملكة مروى القديمة ، وكان مركزها شندى التي كانت قبل الفتح الإسلامي مركزاً من أهم مراكز التجارة في السودان .

٣ — مملكة الميروخاب : شمال مملكة الجعليين ، ومركزها بربر .

٤ — مملكة الرباطاب : امتدت من السنقير إلى الشاحخة فيما وراء أبو حمد .

٥ — مشيخة المناصير : امتدت من الشامخية إلى الشلال الرابع ، وكان مركزها السلامات .

٦ — مملكة الشايقية : قامت على أطلال نباتا القديمة ، وقد امتدت أراضيها من الشلال الرابع إلى أبي دوم قشابي ، وكان مركزها مروى . وهي مملكة عربية بحتة ، قام شمالها مملكة الدفار ودنقلة والخندق وأرقو ، وكانت كلها ممالك نوبية متأثرة بالعرب . وكانت مملكة أرقو هي أقصى الممالك التي امتد إليها نفوذ الفونج شمالا . أما البلاد بينها وبين الشلال الأول فقد تولاها الكشاف الأتراك .

(خامساً) سلطنة الفور :

(١) كان الفور يسكنون البلاد التى يطلق عليها اليوم مديرية دارفور ، وسميت البلاد باسمهم لأن الفور كانوا أكثر العناصر بروزاً فى التكوين الجنسى لهذا الإقليم ، ولأنهم أسسوا سلطنة عظيمة فى هذه المنطقة عاصرت دولة الفنج التى كانت آخذة فى الانهيار . والتى كان ضعفها سبباً فى استيلاء الفور على كردفان من أملاكها (أملاك الفنج) وشعب الفور بأعداده الكبيرة تكون — على ما يظهر — نتيجة اختلاط مجموعة من السكان الأصليين بعنصر يتكلم اللغة النوبية نزح من شمال السودان . ثم تأثرت قبائل الفور بعد ذلك بالعرب .

(٢) ومن الفور قسم خاص هم شعبة الكنجارة[١] وإليهم يرجع الفضل الأكبر فى قيام سلطنة الفور فى القرن ١٧ م . ويذكر الكتاب أن هذه البلاد كان بها ممالك سابقة للسلطنة المذكورة أحدها فى الشمال « دولة التنجور » ، والثانية فى الجنوب (دولة داجو) . كما ذكروا أن فرعا من فروع الكنجارة ارتبط بعائلة التنجور المالكة عن طريق المصاهرة ، ومن هذه المصاهرة بدأ عهد سلاطين الفور الذى كان مقصوراً فى القرن ١٦ م على كتلة « جبل مرة » .

(٣) وبدأت سلطنة الفور رسميا بتولى سليمان سلونجا العرش سنة ١٦٤٠ ، وسليمان هذا رجل عربى من بنى هلال ، وهو ينتسب إلى أحمد المعقور أول من دخل بلاد الفور من هذه الأسرة ، حيث لقى حفاوة عظيمة من ملك الفور الوثنى فجعله مشرفا على شئون بيته ، فأصلح

---

(١) الكنجارة قدموا دارفور من إقليم بحيرة تشاد ، وربما قدموا أصلا من تونس ، وهم ينتسبون إلى أبى زيد الهلالى المشهور .

شئون بيت الملك الاقتصادية والإدارية فأحبه الملك كثيراً . ولما لم يكن له وريث من الذكور زوج ابنته من أحمد المعقور هذا ، وعينه خليفة له وأيد الشعب هذا الاختيار . ومن سلالة أحمد هذا كان سليمان صولون الذى مد سلطانه على كردفان . واهتم بنشر الإسلام فى كل بلاده . ومن بعده تعاقب السلاطين على دارفور من بيته حتى عهد السلطان محمد تيراب (١٧٦٨ — ١٧٨٧) حيث وصلت السلطنة أقصى اتساعها .

(٤) وفى عهد خلفه السلطان عبد الرحمن الرشيد اتخذت الفاشر عاصمة ، واتصل هذا السلطان بنابليون بونابرت الذى كان قد استولى على مصر وهنأه بفوزه على المماليك (سلاطين مصر قبل نابليون) ، الذين عطلوا تجارة دارفور مع مصر ، فطلب نابليون من السلطان عبدالرحمن أن يرسل إليه ألف عبد ليقوى بهم جيشه . وظلت سلطنة الفور قائمة حوالى قرنين ونصف قرن من الزمان. حتى تم فتحها وضمها إلى دولة وادى النيل سنة ١٨٧٤ كما هو واضح فى الفصل الرابع .

(٦) أما عن حضارة دولة الفور ونظم الحكم فيها فنلخصها فيما يلى:

(ا) كانت حكومة الفور من النوع الملكى المطلق . فالسلطان يجمع فى شخصه كل السلطات ويتصرف فى الأموال كيفما شاء . ومع ذلك فإن السلطان كان له مجلس خاص من المقربين إليه يستشيرهم فى أمور الدولة.

(ب) اعتمد السلاطين على الإدارات الإقليمية فى إدارة البلاد ، فكانوا يعينون رؤساء إداراتهم الإقليمية من عشيرتهم وبطانتهم . وبذلك كان نفوذهم فى دولتهم أقوى وحكمهم أنفذ .

وكان كل حاكم إقليم — من أقاليم الدولة الأربعة — نائباً للملك

وجعل مع كلٍّ (نائباً للشرطة) . وأوجد نظام العمد والمشايخ فى القرى وما لبث أن تغير هذا النظام إلى نظام آخر شبه إقطاعى تمتع به أقارب السلطان وأخصاؤه وكبار قومه .

(حـ) وكان القضاء فى السلطنة شرعياً فى الأحوال الشخصية ويقوم بتنفيذه رجال الدين ، ووضعياً فى المسائل المدنية والجنائية .

(ى) أما عن الحالة الاجتماعية فإن زى السلطان كان مكونا من قميص مقصب فوقه برنس مقصب يحليه شال من الصوف . وعلى رأسه تاج مزين بالذهب تحف به سبع ريشات من الذهب والفضة . وفى المناسبات الرسمية يجلس على مقعد خاص ويحمل فى يده صولجاناً محلى بالذهب والفضة ، وفى يده اليسرى يحمل سيفا مستقيما ويضع إلى جانبه سيفا محدبا علامة القوة والعزة .

أما طبقة الحكام والمتصلين بهم من موظفين وكبار التجار فكانوا يلبسون فاخر الملابس المحلية أو المستوردة . وكانت منازل السلطان كلها من الطوب الأحمر ، وغرف نومه وجلوسه مكسوة بالجوخ الملون وأثاثاتها فخمة محلاة بالعاج والمعدن ، ومازالت بعض هذه المبانى ماثلة فى الفاشر إلى اليوم .

(هـ) كانت للسلطنة تجارة نافقة مع مصر وكردفان وبحر الغزال ، وكانت القوافل تحمل إلى مصر الرقيق والسن والريش والصمغ والنحاس والنطرون وتعود إلى دارفور محملة بالأنسجة القطنية والحريرية والجوخ والأسلحة والحلى الذهبية .

(و) تبع تعميم الإسلام فى السلطنة تشييد الجوامع ومساجد العلم والقرآن ، يتلقى فيها النشء مبادىء القراءة والكتابة وحفظ القرآن

ودراسة العلوم الشرعية . كما اتصلت السلطنة بالأزهر الشريف فأرسلت بعض طلاب العلم إليه حيث أصبح لهم رواق يعرف برواق دافور . كما عطف السلاطين على البلاد المقدسة فكانوا يرسلون إليها سنوياً مع بعثة المحمل « صرة الحرمين الشريفين » .

(سادساً) مملكة تقلى .

١ — تأسست حوالى سنة ١٥٧٠ واستمرت إلى أواخر القرن ١٩ ، أسسها أحد الزهاد الجعليين الذى نزل تلال تقلى حوالى سنة ١٥٣٠ ، حيث اجتذب هذا الزاهد محبة السكان وزعيمهم ، ثم قامت مصاهرة بين الزاهد والزعيم ، نشأ عنها تولى ابن الزاهد الملك وخلفه فى الملك تسعة عشر من أبنائه وأحفاده .

٢ — ولمملكة تقلى فى تاريخ العروبة شأن كبير لأنها مكنت للعناصر العربية من التوغل فى هذا الربع الشمالى الشرقى من جبال النوبا مع أن هذه الجبال كانت دائماً قلعة تحتمى بها جماعات النوبا البعيدة عن الثقافة العربية والديانة الإسلامية . وكانت سياسة هذه المملكة المرسومة فى نشر الإسلام والعروبة ترمى إلى تحقيق هدفها عن طريقين :

(ا) بالتزاوج بين القبائل النوبية .

(ب) تشجيع القبائل العربية على المهاجرة والاستيطان فى هذا الركن من السودان ، وبفضل هذه السياسة انتشرت العروبة فى بلاد النوبا الشرقية .

ممالك السودان ومشيخاته
قبل الفتح المصرى

الفصل الثالث

السلطة السنارية والعهد الفونجي

(١٥٠٥ — ١٨٢٠ م)

١ ــ أصل السلطنة السنارية ونشأتها :

(١) ونجد لزاماً علينا أن نحاول التعرف على التطورات ، التى حدثت فى القسم الشمالى والشمال الغربى لأثيوبيا ، وما كان لها من أثر فى السودان ، ومدى ارتباط ذلك بالسلطنة ، التى قامت فى سنار فى القرن ١٦ م .

فقد كان الجزء الشمالى من أثيوبيا موضع اهتمام المسلمين نسبة لموقعه الاستراتيجى على طرق القوافل بين البحر الأحمر ، وداخلية البلاد الأثيوبية ، وحوض النيل . وذكر اليعقوبى فى تاريخه أن مملكة البجة وهم بين النيل والبحر الأحمر كانت لهم عدة ممالك[1] ، فى كل بلد ملك منفرد .

٢ ــ أما عن أصل السلطنة السنارية (الفونج) فقد اختلف فيه المؤرخون ويمكن تلخيص آرائهم فيما يلى :

---

(١) ممالك البجة هى : فأول مملكة البجة من حد أسوان وعاصمتها هجر ، والثانية بقلين والثالثة بازين وهى تتاخم مملكة علوة من النوبة ، والرابعة جارين والخامسة قطعة من باضع ، والسادسة مملكة النجاشى (تاريخ اليعقوبى ٢١٧ ــ ٢١٨) .

(ا) إنهم من قبيلة الشلك الزنوج التى كانت تسكن على شاطىء النيل الأبيض جنوبى الليس (بالقرب من الكوه).

(ب) إنهم من الغرب من المنطقة التى تقع جنوبى بحيرة تشاد .

(ح) إنهم قد جاءوا من الحبشة ، وأصلهم سلالة عربية أموية هربت من وجه العباسيين ، وكثرت الروايات للتدليل على صحة هذا الرأى الأخير ، وظاهر أن معظم هـذه الروايات وإن اختلفت فى تفاصيلها ترى أن الفونج جاءوا من الشرق ، من الحبشة أولا ثم من السودان الشرقى ثانيا ، وأن أصلهم من بنى أمية تصاهروا مع ملوك السودان . وقد يكون لهذه الروايات ظل من الحقيقة ، ولكن كثرة هذه الروايات واختلافها قد تدعونا إلى الشك فى التفاصيل على أقل تقدير .

٣ — ونظراً لأن الأحوال كانت مرتبكة فى المناطق التى قامت فيها الولايات الإسلامية فى شمال أثيوبيا ، بسبب سوء العلاقات بينها وبين الأثيوبيين من جهة ، وبين القبائل الإسلامية وبعضها من جهة أخرى ، نظراً لذلك كله انتقل السلطان عميرة إلى حوض النيل الأزرق متخذاً (لملم) عاصمة له ، وإقامة علاقات اتحادية مع المشيخات التى كانت قائمة فى حوض وادى النيل الأوسط ، محتفظاً لنفسه ببعض مظاهر السلطان الرمزية ، ولعل العامل القوى الذى ساعد على قيام الاتحاد يرجع إلى تدهور العلاقة بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات فى النوبة وبين المماليك فى مصر مما ترتب عليه أن أصبحت البلاد جنوبى الشلال الثالث فى شبه عزلة اقتصادية ، الأمر الذى دفع المشيخات إلى الاتجاه نحو ساحل البحر الأحمر ، والاتصال

بالسلطان عميرة الذى كان مسيطراً على تجارة ذلك القطاع الذى شمل المنطقة المؤدية إلى حوض النيل الأزرق ومراكز تجمع التجارة فيه ،

(٤) ومما ساعد حملة الفونج على النجاح والتوفيق تلك الانقسامات الداخلية بين نصارى النوبة ، فمنذ أواخر القرن ١٥ م كانت مملكة سوبا المسيحية قد أحست بأن لا أمل لها فى قيام حركة إصلاح تعيد إليها شملها وقوتها ، بعد أن فقدوا الاتصال بكنائسهم التى تقع فيما وراء حدودهم، ولا سيما كنيسة الاسكندرية التى كانوا يعترفون بسيادتها ، والتى كانت تمدهم بالمبشرين ورجال الدين فانحدرت الحياة الروحية فى كنيستهم إلى درجة كبيرة ، فآذنت هذه الحالة السيئة بزوال سلطانهم على يد الفونج وحلفائهم من العبدلاب كما سبق أن ذكرنا ، وتمكن الفونج من تأسيس مملكتهم محل المملكة المسيحية المتداعية ، واتسع ملكهم حتى أصبح يضم عدة إمارات تمتد من الشلال الثالث شمالا إلى حدود الحبشة جنوبا ، وتمتد شرقا إلى البحر الأحمر ، حيث تنتهى عند سواكن طرق القوافل الآتية من بربر وشندى ، وكان عرب البطانة من الجهة الجنوبية الشرقية خاضعين لها . واستطاع ملوك سنار أن يسيطروا بعض السيطرة على مناطق كردفان غربا إلى جبال النوبا .

٢ — نظم الحكم فى السلطنة :

اختط عمارة دونقس (عميرة) مدينة سنار حوالى سنة (١٥٢٣ — ١٥٢٥) واتخذها عاصمة واتخذها فى هذا المكان لموقعها الإقليمى الاستراتيجى فى قلب القطاع ، ولأهمية موقع المدينة على الطرق النيلية والقوافل ، واستمرت مملكة سنار يتعاقب عليها ملوك الفونج ما يزيد على ثلاثة قرون .

وكانت مقاليد السلطان فى العهود التى سبقت سيطرة العرب القبلية قائمة على أسس دينية يتولى تصريفها رجال من طبقة الكهنوت ، يتبادلون السلطة على نحو ما كان يفعله أضرابهم فى مصر .

فالملوك مؤلهون يعاونهم رجال الكهنوت . وقد انطبعت هذه النظم بالطابع المحلى . وقد بقيت هذه النظم قائمة حتى الفترة التى بدأت فيها الهجرات العربية تشق طريقها نحو الجنوب فى مجموعات متلاحقة اختلطت بالسكان المحليين وصاهر زعماء القبائل العربية بيوتات الحكم فى المواطن التى استقرت فيها رحالهم وتمكنوا عن طريق هذه المصاهرة من ولاية السلطان تدريجيا . وكان لزاما أن تترك المرأة الوطنية صورة من تقاليدها ومعتقداتها التى ورثتها عن بيتها فى أبنائها ، ومن هؤلاء الأبناء من تدرج لولاية الحكم . وكانت مقومات السلطان قائمة على عناصر متشابكة من الدين والتقاليد والمعتقدات ذات الجذور البعيدة العمق فى حياة المجتمع ، ولم يكن من اليسر أن تقتلع هذه العناصر ، بل قدر لها أن تصطرع فى عراك خفى مع عناصر الحكم ومقوماته التى جاء بها المهاجرون . ونتيجة لهذا الاصطراع أخذت تختفى بعض المقومات التى قامت عليها الزعامة الوطنية وذلك بعد أن بسط العرب سيطرتهم وممارستهم للحكم حسب التقاليد القبلية العربية وكان من تلك التنظيمات التى أدخلها العرب على المجتمع المحلى ، ما يتمشى مع التطور الطبيعى للتقاليد المحلية ، وكان البعض الآخر تطورا مفاجئاً للحالة القائمة ، وقد أصاب ذلك حياة المجتمع بتصدع عميق الأثر فى حياة الإسرة وعلاقتها مع الزعيم والأرض ، والأمر الذى قام على روابط دينية . فقد تولى شيخ القبيلة الحكم فى مجموعته القبلية ، ومن سكن معهما فى دارها من العشائر

المتحالفة ، وصار الحكم وراثياً فى بيت الشيخ ، وتكونت من مجموعات القبائل المتجاورة . زعامات إقليمية تولاها « شيخ المشايخ » الذى يكون عادة شيخ أقوى قبيلة فى المجموعة ، وقد عرف هـــذا اللقب فى عهد السلطنة السنارية باسم « الملك » أو « أو المانجل » ، وتستعمل كلمة « أرباب » مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع ، وتطلق « أرباب » على أفراد الأسرات المالكة .

وكان الشيخ يمارس مسئولياته فى مجلس « الأجاويد » وذلك فى المسائل الخارجية عن سلطاته التقليدية التى يباشرها بشخصه ، وهذه تتلخص فى توزيع الأراضى الزراعية على رؤساء البيوت ، وأن يحافظ على حقوق القبيلة فى الأراضى التى تحتلها والآبار التى تستخدمها الطرق والمفازات .

وإذا كانت القبيلة من سكان البادية ، فشيخها يتولى إصدار أمره بالرحيل والنزول والقيام فى مواطن الرعى الموسمية . وتختص كل قبيلة بموطن مرعاها الخاص بها .

وعلى الشيخ أن يكون عارفا بتقاليد القبيلة ، وتقاليد القبائل المجاورة لها فى الدار ، وأن يكون حافظا للأنساب ، وأن يقوم باستضافة الغرباء ، الذين ينزلون دار القبيلة ، وله الحق فى أن يحصل على جانب من المـال أو الغلة ويحتفظ به لمصلحته .

كما كان على الشيخ أن يتولى تنظيم إقامة الأعياد التقليدية ، وغير ذلك من العادات القائمة ، فالشيخ بذلك رمز القبيلة ، يتولى إدارة شئونها الخاصة والعامة ، ويفض مشاكلها ، وينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ . وهو الذى يقوم بجمع العشور عن الأرض الزراعية ، ويرسل

جزءاً منهـا إلى شيخ المشايخ ، وهـذا بدوره يدفع جانبا إلى خزينة السلطنة السنارية .

وإذا قارنا بين تنظيمات المجتمع التى توارثها القوم ، وبين ما استحدثه العرب ، نجد أن الوطنى قد استرد شخصيته وكيانه فى المجتمع ، كما استرد حريته فى أرضه التى يستغلها بزوال الفوارق بينه وبين حكامه من الغابرين وصار عليه أن يدفع للزعيم القبلى المحلى المقرر من الضرائب . وكان من نتيجة هذا التطور دخول تحسين على مستوى المعيشة للأفراد ، وتبعاً لذلك فتحت آفاق جديدة ، غير أن طريق التطور والتقدم قد أصيب بنكسة بسبب :

(ا) ما أصاب شمال الوادى من تدهور وانحلال وتطاحن تحت حكم المماليك ، وكان لهذا أثره فى العلاقات بين شطرى الوادى ، وبخاصة من الناحية الاقتصادية لتوقف التبادل التجارى .

(ب) أن التغييرات التى استحدثها العرب فى الزعامة القبلية والعائلية والأرض اقتلعت جذورا بعيدة العمق فى حياة المجتمع وتقاليده الدينية .

ورغم أن هذا الإصلاح قد أدخل تحسينات لها قيمتها إلا أنه لم يأخذ طريقه الطبيعى للتطور فى فترات كافية تسمح لقبول الإصلاح الجديد والدفاع عنه ، ومع هذا فقد ظل هـذا النظام الإقطاعى سائدا السلطنة السنارية فلكل قبيلة سواء أكانت بادية أم متحضرة ملكها أو شيخها يدفع الضرائب بعض الأحيان وأحيانا أخرى ينتهز هؤلاء الملوك أو المشايخ ضعف السلطة المركزية ويرفضون دفع الإتاوة المفروضة عليهم مظهرين بذلك عصيانهم ، فتساق نحوهم الجيوش ويقع القتال بين الحاكم وتابعه ،

وأحياناً يكون الضعف قد بلغ حداً لا يستطيع السيد إرجاع مسودة إلى الطاعة .

وقد يختلف الحليفان (الفونج والعبدلاب) أحيانا ، فتقع الحرب بينهما وتراق الدماء ، وقتل أكبر ملوك العبدلاب شأنا (نفوذهم شمال بلاد الجزيرة) وأبعدهم صيتاً وهو الشيخ عجيب المانجلك (لقب يطلق على ملوكهم) نتيجة لذلك الخلاف بين الشريكين .

٣ — الحالة الاجتماعية ونشاط الدعوة الإسلامية وانتشار الطرق الصوفية :

(ا) الحالة الاجتماعية :

أحدثت الهجرات فى مراحلها المتعاقبة كما سبق أن أشرنا ، تطورا فى نظم الحكم وفى حياة المجتمع ، فقد أزالت ما كان قائما من فوارق بين الراعى والرعية ومابينهما من عبودية مطلقة ، واستردت الرعية حريتها الفردية ، بزوال جهاز الحكم المتوارث وقيام التقاليد القبلية العربية ، بعد أن كانت مقاليد الحكم تنتقل إلى ابن الأخت أو ابن البنت ، وأصبح الرحالة وهو يمر بديار السودان لا يشعر بطبقات اجتماعية ، فالأثرياء وحتى الملوك والسلاطين يأكلون ويلبسون ويسكنون مثل مايفعل أفراد الشعب .

كذلك صارت الأرض ملكا للجماعة القبلية متمثلة فى شخص زعيمها ، بعد أن كانت ملكا خاصاً لرئيس الدولة ، أو موقوفة على المعابد . وكان الأهلون عبيداً لا يملكون الأرض ، بل يعملون عليها لمصلحة الحاكم ورئيس المعبد أومن ينوب عنه ولم يكن ذلك النوع من التقاليد التى أقامها

النظام القبلى إلا مرحلة من مراحل التطور من النظام الإقطاعى المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيباً من جهوده . بعد دفع الأتاوة المعينة للزعيم الذى يقوم بدفع جزء منها لحاكم الدار .

(ب) نشاط الدعوة الإسلامية :

أما عن نشاط الدعوة الإسلامية فى عهد السلطنة السنارية ، فقد اشتدت الرغبة فى النهوض بالدين ونشر العقيدة بين الناس ، وكانت أساليب الدعوة سلمية فى أغلب الأحيان ، وقلما كانت تستخدم أساليب العنف فى الإسلام بين القبائل الوثنية . ومن هـــذه الأمثلة القليلة ما قام به النوبيون سكان الجبال والشلكيون سكان أعالى النيل من غارات على قرى عرب السودان فاستثار عملهم هذا ملك سنار (بادى أبادقن ١٦٤٥ — ١٦٨٠) فشن عليهم غارة طاحنة جاء بعدها بكثير من الأسرى ، ومن مآثر هذا الملك التى رويت عنه أنه كان يكرم العلماء فى بلاده ويرسل الهدايا لعلماء الأزهر ، ومنهم من مدحه بقصائد ، ولم يفت هذا العمل من قبل ملك سنار فى عضد النوبيون بل جعلهم يشددون النكير بغاراتهم المتواصلة على كردفان واستمرت الحروب زمناً طويلا حتى انتشر الإسلام فى كثير من مناطق جبال النوبا ، وكان بعض الفقهاء يأتى ببعض أهالى النوبا إلى الأبيض فيعلمونهم القرآن الكريم ، والضرورى من الفقه والتوحيد ، ثم يعيدونهم إلى بلادهم ليتولوا نشر الدين بين قبائلهم .

أما فيما عدا ذلك فقد انتشر الإسلام بين القبائل السودانية فى ذلك العهد بوسائل سلمية خالصة ، وكان لرواد الدعوة الذين وفدوا من الحجاز والمغرب ومصر والعراق ، إلى جانب الدعاة الوطنيين ، فضل كبير فى هذه السبيل . فقد كان حجاج السودانيين يشجعون علماء الحجاز

على الرحلة إلى بلاد الفونج ، كما أن كثيراً من السودانيين كانوا يتلقون العلم فى مكة والمدينة وعاد بعضهم متأثراً بالمبادىء الوهابية التى سادت الجزيرة العربية فى أواخر القرن ١٨م وأوائل القرن ١٩م وعمل على نشرها فى بلاد السودان ، فقد تمكن الداعى عثمان بن فوديا بعد عودته من الحجاز من نشر بعض مبادىء الوهابية بين قومه (قبيلة الفلبى إلى الغرب من السودان)

ولقد كان المغرب منبعاً آخر لانتشار الإسلام فى السودان ، لأن عدداً كبيراً من المغاربة هاجروا بلادهم واستقروا فى أنحاء مملكة الفونج ، وقد ذكر المؤرخون من أسماء علماء الفونج الكثير ممن يرجع أصلهم إلى المغرب أو الأندلس .

أما العراق فنجد ذكره قليلا فى ذلك العصر غير أن من أوائل من نشر الصوفية فى بلاد الفونج شيخاً قدم من العراق . هو تاج الدين البهارى ، وقد سلك على يديه عدد من الوجهاء ، وعمت طريقته جميع بلاد سنار . وفى هذا العصر أيضاً تطلع ملوك الفونج إلى الأزهر الشريف وعلمائه ورحبوا بهم ، وكان بعض السودانيين يذهبون إلى الأزهر ثم يعودون بعد تحصيل العلم وكان لهم أثر واضح إلى جانب تأثير الحجاز والمغرب والعراق فى نشر الثقافة الإسلامية فى السودان ، إلا أن الأثر المصرى امتاز بطابعه العلمى ، أعنى أن الذين تأثروا بالثقافة المصرية فى ذلك العهد اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم . غير أن الطابع الصوفى أو الصوفى العلمى معاً كان غالباً على تعليم ذوى الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية . ومن أهم الآثار الاجتماعية التى ترتبت على نشر العقيدة الإسلامية فى ذلك العهد أن برزت تجمعات دينية

فى مظاهر مختلفة ، أهمها مظهران : الاندماج القبلى ، والتجمع الصوفى .

فالأول لم نقصد به اتحاد القبائل السودانية بفضل العقيدة ، بل قصدنا به أن نعرف مدى تأثير انتشار الإسلام بين الجموع السودانية فى أنساب القبائل وترتيبها . وأما الثانى فقد كانت نواته شيخ الطريق ، وقد لعب هذا المظهر دوراً هاما فى حياة السودانيين .

(حـ) انتشار الطرق الصوفية :

عملت الصوفية على التقرب بين القبائل والأجناس ولو فى حيز محدود . فقد كان الناس يرحلون من مختلف أنحاء السودان إلى الربط والزوايا للاتصال بالشيوخ وتلقى الطرق عنهم . ومما ساعد على انتشار الطرق فى السودان فى ذلك العهد وفيما بعده من العهود . أنها كانت منتشرة فى البلاد العربية المجاورة للسودان ، أو التى كان السودان على صلة بها ، كالحجاز والعراق والمغرب ومصر . ومنها تسربت على أيدى دعاة من الغرباء المواطنين ، أضف إلى ذلك ترحيب السودان بهذه الطرق ومشايخها ، وتشجيع ملوك لهم على نحو ما رأينا ، أضف إلى ذلك أيضا أن المشايخ من جانبهم كان الكثير منهم قد أظهر من الصفات ما جعل الناس يتهافتون عليهم ، ويتخذونهم ملاذاً لهم فى ساعات الضيق والعسرة . فقد كان للشيخ قدرة على تهدئة الخواطر ، وبث الثقة فى نفوس الناس ، وقضاء مصالحهم ، وزجرهم عما فيه ضرر بفرد معين أو بالجماعة . ثم إن الحالة قبل عصر الفونج كانت خير تمهيد للدخول فى هذه الطرق الصوفية والإقبال عليها ، ذلك أن كثيراً من العرب الذين هاجروا قبل عصر الفونج إلى السودان كانوا من الذين ألجأتهم السياسة إلى الهجرة من الحجاز ومصر وشمال إفريقية ، يوم آلت كلها إلى حكم الفاطميين ، فكان السودان

مصب هذه الأفواج النازحة فى ذلك العصر والعصور التالية . أضف إلى ذلك تلك الحروب الداخلية والغارات المستمرة والعصبيات القبلية التى كانت تنوش البلاد السودانية ، وتعمل على تمزيقها فى كل وقت . كل ذلك قد أورث نفوس السودانيين فى ذلك العهد رغبة شديدة فى حياة بعيدة عن مزالق السياسة والعصبية ، فما إن وجدوا فى عصر الفونج هؤلاء المشايخ يدعون إلى الانتظام فى سلك العبادة حتى لبوا سراعاً فى ترحاب شديد وحماسة بالغة . لكن هذه الطرق الصوفية التى تحقق نفعها فى عهد الفونج ما لبثت بعد هذا العصر ، ومع تطاول الزمن ، أن أخذت تتجاوز حدودها ، حتى أصبحت داعية من دواعى التفرقة والخصومة ، وحتى رأينا الدعوة المهدية (الفصل الخامس من هذا الكتاب) تضطر إلى أن تقف منها موقفاً عدائياً .

وأهم الطرق الصوفية التى انتشرت فى زمن الفونج فى السودان هى :

(الأولى) طريقة القادرية ، ولعلها من أوسع الجماعات الدينية انتشاراً فى البلاد الإسلامية ، فقد قامت أصلا على يد عبد القادر الجيلانى فى القرن ١٢ م ، ثم دخلت فى إفريقية الغربية فى القرن ١٥ م . وفى حوالى سنة ١٥٤٥ م أدخل تاج الدين البهارى طريقة القادرية فى السودان ، وقد أخذ عليه الطريقة أربعة رجال[١] ، وهؤلاء كانت فى يدهم السلطان الزمنية والروحية فى أيام الفونج . وظلت ذريتهم تباشر السلطة الروحية فى الجزيرة إلى اليوم .

---

(١) هم : محمد الأمين بن عبد الصادق جد الصادقاب (فى إقليم سوكى بين واد مدنى والقضارف) . وبان النقا الضرير جد اليعقوباب . وعجيب المانجلك جد العبدلاب . وعبد الله العركى جد العركيين .

(الثانية) الطريقة الشاذلية ، وهى منسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى (١١٩٦—١٢٥٨م) وهو من تونس ، وانتشرت طريقته فى مراكش فى القرن ١٥ م على يد أبى عبد الله الجزولى ، ويقال إن إحدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح إلى السودان ومعه ابنه السيد بن الحسن سنة ١٤٤٥ أى قبل عصر الفونج ، فأخذت الطريقة تنتشر حتى كان عصر الفونج حيث رسخت دعائمها على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المتوفى سنة ١٧٤٣م .

٤ — الناحية العلمية والثقافية :

كانت مدارس القرآن والمساجد وسط الثقافة والتعليم ، ومنها ما اشتهر وذاع صيتها فى أنحاء البلاد ، حتى إن الطلاب كانوا يهاجرون من مواطنهم النائية للارتشاف من مناهلها ، وما كان العالم ينبه ذكره ويشتهر إلا بالرحلة فى طلب العلم على يد المشايخ المشهورين ، وما كان الصوفى يصل إلى درجة ما فى الطريق إلا إذا أخذ من وتلمذ على أستاذ مشهور ، وزار وتبرك بأكثر من واحد . ومنهم من يشد الرحال لمصر للمجاورة بالأزهر الشريف منهل العلوم الإسلامية ، وللتعرف إلى المشايخ المعروفين ومنهم من ينوى الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ويبقى حينا قد يمتد إلى سنين يأخذ من علماء الحرمين ، أو يسلك الطريق على أئمة المتصوفة هناك .

أما بقية الشعب فما كان الواحد منهم يطمع لأن يصل إلى درجة ما فى الثقافة والتعليم ، وحسبه أن يسلك الطريق على شيخ مشهور ، ويأخذ منه ما هو فى حاجة إليه ، أخذ الواثق المطمئن لمكانة شيخه الدينية . فالذى مكنته الظروف من أن يدرس فى مدرسة ما مبادىء القراءة والكتابة

وتحصيل القرآن أو جزء منه ، يهيمن على حياة القرية الدينية والثقافية والاجتماعية أحياناً ، فمسائل الزواج والطلاق والعبادات من صلاة وزكاة مرجعها إلى الفلكى (الفقيه) . وسهرات القرى فى أغلبها هى حلقات الذكر ومدائح النبى ، وخاصة عند الكهول والشيب .

ومما يجب ملاحظته فى هذا العهد أن كلمة (المعلم) كانت تطلق على العلوم الدينية وما يلحق بها من علوم تعين على فهم النصوص الدينية : كالأدب والنحو واللغة ، أو شرح العظات والقصص الدينية كالتاريخ وأيام العرب . ورجل الدين لا تتم مرحلة تعليمه إلا إذا أخذ بنصيب من هذه العلوم جميعاً ، فالأدب واللغة والنحو والأخبار كلها متممات للمنهج الدينى .

٥ — التنظيمات الاقتصادية :

كانت الأرض هى الركن الأساسى الذى نشأت عليه العلاقات بين الزعيم والعامل على الأرض . واختص الزعيم بملكية الأرض بوصفه صاحب السلطان وهو الذى يجرى توزيعها على أصحاب البيوتات من رعيته بالقدر الذى يتناسب مع إمكانياتهم على العمل الزراعى . وبقيت ملكية الزعيم للأرض قاعدة سارت عليها المجموعات العربية فى صورة تتناسب مع تقاليدهم وما ألفوه فى مواطنهم الأولى . وصارت الملكية للأرض فى عهد العرب معترفاً بها . وحددت العلاقات بين الملكية الجماعية للقبيلة صاحبة الدار كطرف أول ، وبين العامل على الأرض المنتفع بها كطرف ثان .

وقد ورث العرب التنظيمات المحلية الخاصة بالأرض التى كانت متبعة فى المناطق التى اتخذوا فيها مهاجرهم . وقد اختلفت هذه التنظيمات

بعض الشيء بين منطقة وأخرى بسبب ظروف البيئة والمناخ . وكان الزعيم يحتفظ بمساحة من الأرض لاستغلالها لمصلحته الخاصة ، وعرفت هذه باسم العمارة . وكان الزعيم أو السلطان السنارى فيما بعد يتصرف فى جزء من أرض العمارة عن طريقة الهبة خاصة للفقهاء الروحيين ، وصارت هذه الهبات نواة للملكيات التى سمح للفقهاء ووارثيهم بالاحتفاظ بها واستغلالها لمصلحتهم .

وكان على العامل على الأرض وعلى صاحب المال والتجارة والماشية أن يدفع كل فى حدوده ضرائب معينة ، وقد سعى ملوك الفونج جهدهم فى تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية فى جمع الزكاة والعشور والفطور ، وكانت تدفع فى غالب الأحوال عينية ، وفوق ذلك فقد كان من حق الشيخ المحلى للدار أو القبيلة الضاربة فى بطن الوادى ، أن يحصّل ما يسد به المطالب التى يقوم بها بوصفه زعيما كالضيافة وإقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك . ولا يفوتنا أن الأهالى كانوا يدفعون ضرائب للرؤساء الروحيين المحليين فى صورة النذور أو الهدايا .

ومهما يكن من أمرها فإن مقررات السلطان السنارى كانت شكلية وغير مجحفة ، كما أن الزعماء كانوا يحصلون ضرائبهم بنسبة المقدرة الشخصية ، لا على أساس فرض رسم معين يتساوى فيه الجميع ، كما كان الزعيم المحلى لا يحصل ضرائب من الفقراء ومتوسطى الحال .

وكانت موارد السلطنة والزعامات الإقليمية المتحالفة مع سنار على أساس تنظيمات (الجمهورية التجارية) التى كان زعماؤها يقومون باحتكار التجارة ، فى المنتجات المحلية ، وتصريفها فى الأسواق الخارجية . واستيراد الحاجات الأخرى من خارج البلاد .

ويذكر الرحالة بركهاردت الذى رحل فى قافلة سنار إلى شندى ومنها شرقا إلى سواكن فالحجاز فى أواخر العهد الفونجى ، أن مصر تصل إلى بلاد السودان بقافلة سنار وقافلة دارفور . فالطريق الأول يتجر فيه المصريون وأغلبهم من الصعيد ، والثانى الحدارب وهم سكان سواكن . ويقدر هذا الرحالة رأس مال التجار المصريين الذين يتاجرون مع السودان ما بين الستين والثمانين ألفا من الريالات .

يحمل هؤلاء التجار إلى السودان كميات من العطور والروائح الهندية والصابون وبعض المنسوجات ، وأنواعا مختلفة من العطارة ، ويرجعون بالرقيق والصمغ والسن وغيرها مما عرف السودان بإنتاجه ، ويقدر ما كان يصدر سنويا من الدقيق لمصر عن طريق قافلة سنار بالف وخمسمائة ، وعن طريق سواكن بألفين ومائتين .

ولكن معين الثروة هذا لم يدم طويلا بسبب تعرض السلطنة لمشاكل عديدة فى السنوات الأخيرة من حكمها ، ويتضح ذلك مما سنذكره فى العنصر التالى .

٦ — أسباب ضعف وسقوط السلطنة السنارية :

لقد أصيبت بلاد السلطنة بالكساد وبخاصة بعد أن اشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرنجة ، وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ونزول الأوربيين فى غرب إفريقية ، وإنشائهم مراكز تجارية ، أخذوا منها فى توسيع نفوذهم إلى داخل القارة الإفريقية ، ولم تقو السلطنة على الاحتفاظ بمركزها ، لأنه لم يقدر لها أن تتخذ من أساليب الحكم ، ما يتمشى مع التطور الطبيعى للأشياء ولم تعمل على أن تجمع بين مختلف

المجموعات القبلية ، لتوحد بينهم فى مصلحة عامة ، كما أنها تركت التقاليد المحلية .

ومما زاد الأمور تعقيداً وجود الزعامات الدينية المحلية ، التى كونت سلطة ثانية فى البلاد لها نفوذها ، وكان من المنتظر أن تعمل هذه الزعامات لتكوين قوة لها شأنها فى حفظ التوازن ، مع سلطة الزعماء والسلطان ، إلا أن هذه الزعامات الدينية قد انحرفت فيما بينها ، وانعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء ، وعمل هؤلاء على إشاعة روح التعصب والتنافس ، فانقسمت القبائل إلى معسكرات ، يتطاحن بعضها والبعض ، وعمل اليأس والقنوط الذى خيم على الحياة اليومية ، على انهيار المجتمع . فتركت الأراضى الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل . والتجأ الشعب إلى أصحاب السجاجيد وخلفائهم فى قضاء الحاجات . من دفع للأذى والضر ، وجلب للمنفعة ، والخير والمثوبة من الله تعالى .

وكان من نتيجة اشتداد حالة القلق ، بسبب العدوان بين مختلف المعسكرات ، أن حطت الفاقة والذلة على الشعب ، فانحلت بذلك الروح المعنوية ، ومركز السلطة لأكثر من سبب ، وفى مقدمة تلك الأسباب :

١ ــ نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات من بنات عين شمس (من نسل السلطان نول سيد قوم الشمس من أرتريا) وبين الزوجات اللاتى ارتفعن إلى مصاف الزوجية الشرعية لسبب أو آخر .

٢ ــ ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف إلى قيام وحدة قومية ، وحياة اقتصادية ، تغنى البلد عن اعتمادها الكلى على التجارة المرورية ، ولم تقم فى البلد صناعات الخ ... الخ .

٣ — فشل الحكومة المتحدة (الجمهورية التجارية) التى مركزها سنار فى إنشاء حكومة مركزية قوية الجانب ، وبالتالى فشلت فى خلق رجال الصف الأول لتحمل المسئوليات .

٤ — قيام سلطات دينية متعددة ، وغير مرتبطة مع بعضها فى القيام بعمل مشترك هدفه الإصلاح .

٥ — إسراف السلطان فى حياة الترف والملذات .

٦ — استخدام جماعات من الأقليات لتولى تصريف شئون الدولة الأمر الذى ترتب عليه إبعاد أهل الشورى والخبرة ، وخلق التذمر والقلق .

٧ — الإبقاء على تقاليد توزيع الأراضى ، فى الزعامات المحلية المختلفة وكان هذا العامل الأساسى فى بدء بذور الفتنة والتطاحن .

٨ — كان حكم وزراء الهمق (الهمج)[1] حكما فردياً ، إذ أصبحت السلطة الفعلية فى السلطنة فى أيدى الوزراء وترك الإسم والمظهر للسلطان واصطبغ نتيجة لذلك الجزء الأخير من حقبة الفونج بهذا النوع من الحكم الذى عجل بنهاية السلطنة ، لأن الهمج انفسهم شغلوا بالفتن والدسائس فيما بينهم ، وهذا ما أدى أخيراً إلى استقلال المملكات الصغيرة من سلطان سنار . فالسنين التى سبقت الفتح التركى ، كانت حقبة تفكك وانحلال ، وهذا مما جعل مهمة إسماعيل بن محمد على أسهل مما كان مقدرا لها .

---

(١) وهم النوبة جىء بهم من كردفان ومن أهل سوبا (العنج) . وكان يطلق الفنج على هؤلاء اسم الهمج تحقيراً وازدراء لهم . وأول من استخدمهم هو السلطان بادى أبى شلوخ .

الفصل الرابع

فترة الحكم التركى فى السودان

١ ـ أسباب الفتح ودوافعه :

تميزت السنوات الأخيرة من القرن ١٨ م باشتداد الصراع بين فرنسا وإنجلترا ، وكان من نتائج هذا الصراع إرسال فرنسا حملتها إلى مصر سنة ١٧٩٨ لأهميتها الاستراتيجية على مركز إنجلترا وخطوط تجارتها بين الشرق والغرب وداخلية أفريقية . ولم يهدأ بال إنجلترا إلا بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر سنة ١٨٠١ ، وبعد خروج الفرنسيين من مصر أقام الباب العالى ولاة ، لم يكن لهم التوفيق فى إدارة البلاد . حتى تمكن الشعب المصرى من تولية محمد على الذى نشط فى مطاردة المماليك والخلاص منهم ، وقد امتد نشاط هؤلاء إلى السودان ، حيث دخلت إليه بعض الجماعات منهم هرباً من والى مصر . وقد حاول هؤلاء المماليك الهاربون السيطرة على دنقلة ، والانتقال منها تدريجياً نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة الكاملة ، كما حاول هؤلاء المماليك الدخول إلى كردفان وبلاد الفور (دارفور) . واقترنت هذه الجهود من جانب المماليك فى مهجرهم بالاتصال بالوهابيين فى الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم حسن جوهر الكاشف . وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع أثيوبيا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط ، وتنفذ إلى ساحل البحر الأحمر وتنشىء فى هذا الجزء من وادى النيل مشيخات وزعامات تخضع فى صورة أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون فى شكل ما مع دولة أوربية عن طريق محالفات أو امتيازات تجارية .

ولم يتوان محمد على فى اتخاذ خطوات مضادة لعرقلة الحركات المعادية التى تهدف إلى إقامة قوى منافسة، تستطيع مناهضة مصر والضغط عليها، وذلك بإرساله وفداً رسمياً إلى السلطان السنارى فى عام ١٨١٣ مطالباً بالعمل على مقاومة النفوذ المملوكى كما أرسل بعثة ثانية إلى غندار بأثيوبيا لنفس الغرض، مقاومة للنشاط المملوكى. وجاءت إلى مصر كنتيجة للتطورات التى حدثت فيها بتغيير نظام الحكم وزوال السيطرة المملوكية، وفود من السودان على رأس كل منها زعيم من كبار الشخصيات، يتلمسون الطرق والوسائل للحصول على نجدة من مصر للخلاص مما حل بهم من تطاحن قبلى وحروب داخلية، ومطالبتهم بإنشاء حكومة قوية فى السودان على يد مصر. ولا شك أن محمد على وهو يسعى لتوطيد مركزه فى مصر، ويسعى أيضاً لإيجاد جيش جديد يدعم هذا المركز، يفكر جدياً فى المادة الخام من الرجال لجيشه، التى يمكن الحصول عليها من السودان لو تم فتحه، ثم إن محمد على قد سمع كغيره أن جنوب السودان رماله الذهب، وأن فيه من الخيرات ما لو استغل لساعد على إيجاد المال اللازم لما يريده من إصلاح ومن تأسيس دولة قوية ذات عز ومنعة. ولا يبعد أن يكون محمد على الذى كان يريد أن يجعل لمصر شخصية مستقلة، قد أخذه حب الاستطلاع للصعود مع هذا النيل ليرى أين ينبع، وأى الشعوب الأخرى تقطن على ضفافه، وماذا يحدث لو سيطرت على منابعه دولة معادية، ولماذا لا يسيطر هو على هذه البلاد فلربما يعتصم به إذا ألجأته الظروف لذلك؟.

لكل هذا طلب محمد على من السلطان العثمانى أن يأذن له بفتح السودان، على اعتبار أن للسلطان العثمانى حقوقاً فى السيادة من أوائل القرن ١٦ م، ليس على ولاية السودان فحسب، بل على الحبشة كذلك.

ووافق السلطان محمود الثانى على أن يفتح محمد على ما يشاء من أقاليم السودان، على أن يحدث هذا باسم السلطان العثمانى ، فظلت السيادة العليا من حق تركيا بوصفها صاحبة السيادة الشرعية على مصر نفسها أولا ، وصاحبة حقوق فى السيادة على السودان نفسه ثانياً .

٢ — الفتح :

استفاد محمد على خبرة كبيرة فى حروبه مع الوهابيين ، ساعدته فى حروب السودان واستعد على ضوء هـــذه الخبرة بمساعدة صديقه ومستشاره فى الشئون الحربية محمد بك لاظوغلى ، الذى جلب المراكب من الوجهين البحرى والقبلى وتجهز لحرب طويلة فى بلاد مجهولة . فجمع جيشاً من مغاربة وأتراك وأرنووط وعربان البادية ، فبلغ عدده حوالى ٤٨٠٠ مقاتل . وعقد لواء الحملة لابنه إسماعيل وهو ابن خمس وعشرين سنة يرافقه بعض الخبراء والفنيين ممن يثق بهم محمد على . وبعد أن أتم استعداد الجيش رحّله إلى حلفا نقطة التجمع ، ثم تحرك الجيش بكامل عدته نحو الجنوب حيث قوبل فى أرض سكوت والمحس بالطاعة والانقياد ، ثم دخلت الحملة بعد ذلك دنقلة الأوردى دون مقاومة ، لأن الأهالى وملوكهم ذاقوا الأمرين من الشايقية أولا ثم من المماليك ثانياً .

ولما زحفت الحملة نحو الجنوب قاومتهم قبائل الشايقية مقاومة شديدة ودارت حروب سجال بين الطرفين انتهت بانتصار جيش الفتح وتسليم بعض الشايقية أنفسهم، ثم انخراطهم فى سلك جيشه فيما بعد . أما المماليك فقد هربوا حتى وصلوا إلى شندى ، ولما تقدم الجيش حتى وصل إلى البر الغربى من بربر ، قابله عدد منهم راجعاً من شندى مؤثراً التسليم على العناد ، أما المعاندون منهم فقد هرب بعضهم إلى كردفان، وشرذمة أخرى

منهم اتجهت شرقاً حتى الحجاز . ثم احتلت الحملة بعد ذلك شندى وحلف « نمر » ملك الجعليين يمين الطاعة لسلطان تركيا ، ورافق الملك « نمر » الحملة المصرية من شندى إلى سنار للاستئناس برأيه ومشورته فى المسائل المحلية التى يتطلب حلها مراعاة التقاليد والعادات المحلية . وحدث فى يوم وصول الحملة إلى سنـار أن وقع السلطان « بادى » الوثيقة التى اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى ، وبتسليم إدارة بلاده إلى حكم مصر .

هذا ما كان من أمر الحملة القوية التى اتخذت طريقها إلى مملكة سنار ، وهذا هو النجاح الذى انتهت إليه . أما كردفان فكان يقوم على أمرها المقدوم مسلم ويدين بالولاء والطاعة لملوك دارفور ، وفى نفس الوقت الذى تحركت فيه حملة إسماعيل من دنقلة إلى بربر ، تحركت حملة أخرى من دنقلة إلى كردفان بقيادة محمد بك الدفتردار صهر محمد على ، ولم تسلم هذه البلاد بسهولة بل حاربت واستماتت فى الدفاع عن كيانها ولـكن لم تغن عنها بسالتها وصدق قتالها ، وانتهت إمارة كردفان ، كما اندكت مملـكة سنار قبلها .

(٣) الحـكومة الجديدة :

(أولا) فى عهد محمد على :

(١) كان هم محمد على بعد الفتح الحصول على أكبر عدد من الرقيق لاستخدامهم فى الجندية . فلـما وصلت أخبار الغنائم الأولى من منطقة سنار ، ذهب إبراهيم باشا إلى السودان ليتفق مع أخيه إسماعيل على تنظيم الإدارة وتوجيه الغزوات لجمع الزنوج لأن والدهما كان يلح فى ذلك حيث يقول فى خطـاب لإبراهيم « وجلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التى بها يجلبون من مواطنهم » .

وشمر كل من إبراهيم وإسماعيل عن ساعده ليقوم بتنفيذ أمر والده ، ولكن إبراهيم على الرغم من أنه قاد بنفسه حملة إلى الدنكة على النيل الأبيض ، إلا أن المرض أعجزه عن متابعة الحملة فعاد إلى سنار ومنها إلى القاهرة ، ونجا الدنكة من شر الغارات .

أما حملة إسماعيل إلى جبال الصعيد فلم تلق نجاحا كبيراً كذلك ، ولم يتم لمحمد على ما أراد من فائدة عاجلة بفتحه السودان . فالعدد المقتنص نتيجة الغزوات قليل ، ومسألة ترحيلهم وإيصالهم إلى مصر لم تكن هينة كما يبدو ، وفوق ذلك ظل الموت يقلل من عددهم .

(ب) تنظيمات الإدارة الجديدة :

انتقلت السلطة الشرعية لولاية البلاد السودانية إلى الإدارة المصرية فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو سنة ١٨٢١م ، وذلك بتنازل السلطان بادى آخر ملوك سنار . وقد شمل امتداد الإدارة المصرية جميع الأجزاء التى كانت فى حلف مع سنار عدا بعض الأجزاء التى كانت مرتبطة بالحبشة . وأخذت الإدارة الجديدة فى وضع الأسس اللازمة لسير العمل ، ولكن يبدو أن الحملة لم تكن مزودة بخطة واضحة ، لأنها تركت الأمر فى المناطق التى تسلمت ولايتها وهى فى طريقها إلى سنار فى يد المشايخ المحليين والكشاف وبعض الجنود من المرتزقة فى المدن الرئيسية وفى هذا ما فيه من تجزئة للمسئولية الإدارية ، وكان من أثر هذه التنظيمات إحياء التقاليد القديمة بشأن تحصيل الضرائب مما كان له أسوأ الأثر البعيد المدى كما سنبينه فيما يلى :

(حـ) التنظيمات الضريبية :

فى أثناء غياب إسماعيل فى غزوته لجبال الصعيد اتفق وكيله وبعض

رجاله على فرض الضرائب ، فسجلوا القرى ، ووضعوا ضرائب باهظة لم يألفها الناس ، ونتيجة لهذه السياسة الشاذة فر فريق من السكان إلى الحبشة ، وفريق آخر استعد للثورة على الحكومة الجديدة ، ولكن عند ماعاد إسماعيل من حملته ، أخذ يستميل الأهالى ووعدهم خيراً فيما يتعلق بالضريبة فحذف جزءاً كبيراً منها ، وأمر الجباة فى استعمال الرفق واللين فى تحصيلها ، ثم رحل إسماعيل بعد ذلك إلى واد مدنى حيث بنيت فيها الثكنات ومكاتب الحكومة ، ورتب حكومة للقرى قوامها قائمقامات لكل عدد منها ، يساعد كلاً عدد من مشايخ الأخطاط .

(ى) مقتل إسماعيل :

وبعد أن استقرت الحالة نسبياً فكر إسماعيل فى العودة إلى القاهرة بعد أن مضت سنتان منذ قام بفتح السودان ، لكن القدر لم يفلته ، بل قدر له ألا يغادر البلاد التى تم فتحها على يديه ، بل ليلقى حتفه وتفيض روحه فوق أرضها ، وذلك بوساطة المؤامرة التى دبرها « نمر » ملك شندى . ويذكر المؤرخون أن السبب فى ذلك هو الإهانة التى لحقت « نمر » من إسماعيل ، فأراد ملك الجعليين الانتقام لنفسه ، فقبل طلبات إسماعيل (وهى أن يقدم فوراً من النقود والماشية والجمال ما يقدر بنحو عشرين ألف جنيه) ، واحتفل بالباشا وفى أثناء السرور والانشراح ، أشعلت النيران حول مقام الباشا حيث مات بالاختناق فى ليلة ١٧ من شهر صفر سنة ١٢٣٩ .

وقد لاقت البلاد نتيجة لهذه المؤامرة عنتاً شديداً على يد محمد الدفتردار ، الذى انتقم من الأهالى والبلاد انتقاما لم يره السودان طوال

أيام تاريخه ، فكان يحل الخراب والدمار أينما حل ، لذلك تركت هذه الحوادث الأليمة فى نفوس أهل السودان أثراً سيئاً نحو الأتراك ، فلا غرابة إذا اقترن اسم الأتراك فى نفوس السودانيين بكل ما هو جائر وظالم .

(هـ) استقرار الإدارة والأخذ بأسباب العمران :

(١) ولاية خورشيد: بعد هذه الأحوال المضطربة عين خورشيد أغا ليكون حاكما على إقليم سنار ،وهو السودان ماعدا كردفان ودنقلة، وكان على الحاكم الجديد أن يرجع مافقدته النفوس من ثقة فى الحكومة وكان عليه أن يرجع من فر ملتجئاً بالتخوم الحبشية (١٢ ألفا) ، ونجح أخيراً فى إدراكه الغايتين ، فهو يجامل ويلاطف وينصف حتى اطمأن الناس لحسن سياسته .

وجه خورشيد عنايته لعمران العاصمة ، فشيدالجامع بالطوب الأحمر وكذلك مبانى الحكومة ، وثكنات الجند ، وشجع الأهالى على البناء والتعمير ، بأن فرق عليهم الأخشاب من جانب الحكومة . كذلك عمل خورشيد بمشورة محمد على ، فاهتم بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات ، وإدخال الطرق الحديثة فى كليهما ، وإرسال الخبراء المختصين من أجل ذلك الغرض .

ونتيجة للخدمات الطيبة التى قام بها خورشيد أغا رقاه الباشا إلى رتبة «مير اللواء» وسمى مدير الأقاليم الاستوائية فى سنة١٢٤٩ هـ . ثم رقى إلى رتبة « الميرميران » الرفيعةسنة ١٢٥١ هـ . ومنح لقب « الحكمدار » . ولما اشتد بخورشيد داء الناسور غادر السودان فى طريقه إلى القاهرة للمعالجة

من دائه ، وكان وداعه رهيباً ، وحزن على فراقه كل الأهالى إذ عرفوا فيه الحاكم المقتدر العادل الذى ساسهم نحو الاثنتى عشرة سنة ، أنساهم خلالها مالحقهم من جور وظلم أثناء سنين الدفتردار الدموية .

(٢) ولاية أحمد باشا أبووادان : عين أحمد باشا هذا مأموراً على الأقاليم السودانية ثم حكمداراً لها ، وكان عهده استمرارا للحكم القوى الموطد الأركان والدعائم الذى بدأه خورشيد ، وعرف بأنه مثال الحاكم الحازم العادل، وكان لإدارته أثرها الحسن فى تأمين الطرق وانهماك السكان فى مزارعهم ، وتربية مواشيهم .

وفى عهدولايته زار محمد على السودان ، ولوأن مهمته الأصلية كانت تنحصر فى شئون المعدن (الذهب) إلا أنه لاحظ ماينقص الإدارة فى السودان فأرسل إلى عباس باشا فى مصر وطلب منه إرسال عدد من الكتاب ذوى الكفاية إلى السودان لاستخدامهم فى مراكز الحكومة والمصالح الهامة ليتسنى بذلك ترقية البلاد ، وإصلاح حال العباد .

كذلك اهتم أحمد باشا بفتح بلاد التاكة الغنية بمواردها الزراعية . وقد تم له ذلك ، وأقام الحكمدار معسكره فى المكان الذى عرف فيما بعد بمدينة كسلا ، وأنشئت الاستحكامات وشيدت مبان لمقر الحكومة. ولم يترك هذه المنطقة إلا بعد أن كون — من البلاد الواسعة التى فتحها — مديرية جعلت كسلا عاصمتها ، وعين عليها مديراً وحامية عسكرية ، ثم قفل راجعاً إلى الخرطوم .

ووصل إلى مسامع محمد على أن الحكمدار أحمد باشا يفكر فى أن يفصل السودان عن حكومة مصر ويضعها تحت سلطة تركيا ويعين هو والياً عليها ، فاستشاط محمد على غيظا واستدعى الحكمدار لمصر ، ولكن

المنية عاجلت أحمد باشا فتوفى قبل وصوله لمصر .

(٣) ولاية أحمد باشا المنكلى : فكر محمد على فى نظام آخر لحكم السودان وهو نظام المركزية . أى تقسيم السودان إلى ست مديريات هى: دنقلا ثم الجهات العليا والأقسام الشرقية للنيل الأزرق ثم سنار ثم فزوغلى وهى أعالى النيل الأزرق ثم مديرية التاكة ثم مديرية كردفان وعين على كل منها مديراً ، وجعل المنكلى منظما لها حكمداراً يمكث ريثما يتم الوضع الجديد ويقفل راجعاً إلى مصر .

وامتازت الحقبة التى مكثها المنكلى فى السودان بالاهتمام الزائد بترحيل المواشى من كردفان والنيل الأبيض لمصر ، كذلك نشطت فى عهده التجارة فى النيل الأبيض بالمراكب . وطلب الأجانب الدخول فى الجنوب لجلب سن الفيل والريش . وفى عهده زاد ضغط الحكومة الإنجليزية على محمد على فى التشديد بمنع الغزوات لجلب الرقيق . وعلى العموم فالإدارة كانت رشيدة لا بأس بها بالقياس لذلك الزمن سوى ماظهر من اختلافات ومشاكسات بين الحكام أنفسهم .

٤ — ولاية خالد باشا :

عينه محمد على خلفاً للمنكلى ، ولكنه أصبح حكمداراً لا منظماً ، وفى عهده ضم الباب العالى للسودان منطقتى مصوع وسواكن نظير نسبة تدفع من جماركهما لخزانة جدة . وقد سعى محمد على لهذا الضم بسبب فرار بعض عربان مديرية التاكة إليهما هرباً من الضرائب والتكاليف الحكومية الأخرى . وبانضمامهما قلت الصعوبات الإدارية التى كان يواجهها حكام التاكة وحكمدار السودان .

وفى عهده كذلك تجدد الاهتمام بالذهب، وجهزت الحملات العسكرية لتوسيع ممتلكات الحكومة فى المناطق التى يظن وجود الذهب فيها فى فازوغلى وعملت مجهودات جبارة للحصول على هذا المعدن النفيس قبل اليأس منه نهائياً . كذلك توترت فى عهده العلاقات مع الحبشة ، وذلك لأن ملك الحبشة طالب القبائل السودانية القريبة من حدود بلاده بدفع الضرائب وتشدد فى ذلك ولم يتنازل عن طلبه إلا تحت ضغط التهديد بتسيير الجيوش عليه .

٥ — الحكم على إدارة محمد على بالسودان :

(ا) محاسنها : من محاسن إدارته أنه أزال الفوارق التى كانت قائمة بين المملكات الصغيرة فى السودان ، والغارات والحروب التى ظلت سائدة بين كل قبيلة وأخرى ، وتأمين المواصلات بين أجزاء القطر بأكمله ، وقد كانت مضطربة ، والإدارة الموحدة التى أعطاها محمد على للسودان قللت نوعاً ما من العصبية القبلية . وفتح السودان أتاح له الاتصال بالعالم الخارجى ، فقد هرع السائحون له لمعرفته وتقصى أحواله ، وفوق هذا اتبع سياسة عمرانية رشيدة تهدف إلى تحسين الزراعة وطرق الرى وزيادة الإنتاج الحيوانى بجلب العمال المهرة وحفر الترع والسواقى الجديدة ، وجلب سلالات الحيوانات والأشجار المثمرة وتقاوى المزروعات الجديدة .

(ب) مساوئها : وأبين هذه المساوىء أن جشع الحكام والعمل لإثراء أنفسهم أشاع الرشوة والاختلاس ، وترك مثلا سيئاً للسكان يقتدون به ، ثم الضرائب الباهظة التى كانت تدفع ، وطريقة جبايتها كانت من الأشياء التى نفرت الأهالى من الحكومة .

ثانياً : إدارة عباس الأول ومحمد سعيد فى السودان :

(ا) امتاز عصر عباس الأول فى السودان بما يلى :

١ — غير الحكمدار خالد باشا بآخر تمكن هذا الأخير بعد وصوله للسودان أن يثبت اختلاس سلفه بعض أموال الحكومة ، فاستصفى منه ألف كيس (الكيس = ٥٠٠ قرش) وردها للخزينة العمومية .

٢ — رفع رتب المديرين فى الأقاليم من القائمقام إلى الميرالاى ، وقرر المجلس العمومى فى القاهرة لائحة يسير العمل بمقتضاها فى السودان بخصوص المدة التى يقضيها كل مدير فى مديريته .

٣ — وأجريت بعض التعديلات فى المديريات ، ودعمت الأداة الحكومية بعدد من الكتاب والمحاسبين والأطباء والأجزاجية ، كما أنشأ الحكمدار فى الخرطوم ديوان الحكمدارية وديوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والأجزاخانة وقشلاقات الطوبجية ، وكلها بالطوب الأحمر .

٤ — فى هذا العهد توالى دخول الرهبان والمبشرين فى السودان ، وأنشئت القنصليات بالخرطوم ، وازداد نشاط الأوربيين التجارى فى أنحاء السودان مما دعا الحكمدار إلى أن يشدد على الأجانب فشكوا أمره إلى القناصل وطالبوا بعزل لطيف باشا فأجابهم عباس باشا إلى ذلك .

٥ — أمر عباس بفتح مدرسة كبيرة فى السودان وعين لها رفاعة الطهطاوى ناظراً ، ولكنه لم يفعل ذلك رغبة فى نشر العلم والتعليم فى السودان ولكنه عمل ذلك انتقاما من رفاعة ليبعده عن مصر ، ولم يقدر لهذه المدرسة البقاء حيث أقفلت فى أول عهد سعيد .

٦ — شاهد هذا العصر كذلك وقف العمل فى معمل الذهب لأنه كان

يعود على الحكومة بالخسارة ، وكذلك إلغاء مصلحة المواشى السودانية فى أسوان .

(ب) وامتاز عصر سعيد باشا فى السودان بما يلى :

١ — أصدر سعيد أمراً بتأليف «أورطة» سودانية خاصة تجمع أنفارها من «الأورط» المختلفة ، واستصحبها كحرس خاص له فى رحلة فى الصعيد لتأديب عربان الوجه القبلى ، وهو الذى رقى الجنود السودانيين إلى مراتب الضباط ، وكتب إلى الحكمدار بانتخاب ١٢٠٠ جندى من «الآلايات» السودانية فى سن الشباب وقوة الجسم وجمال المظهر ويرسلون إلى مصر ليكون منهم حرسه الخاص .

٢ — ألغى الجمارك التى كانت بين مصر والسودان ، كما أصدر أمراً صريحاً بإبطال غزوات صيد السودان ومنع الاتجار بالرقيق .

٣ — لما تحقق له أن الحكمدار كان منغمساً فى الرشوة والاختلاس خلعه وعين الأمير عبد الحليم باشا (أخو سعيد) حاكما للأقاليم السودانية ، ولكن هذا الحكمدار لم يعمر طويلا فى السودان فما لبث أن عاد إلى القاهرة بسبب انتشار وباء فتاك فى البلاد .

٤ — قام سعيد باشا بزيارة السودان رغبة منه فى أن يقف على أحوالها ويضع على ضوء ذلك النظم التى تكفل عمرانها ورفاهية أهلها .

٥ — بعد هذه الزيارة قرر سياسة جديدة فى حكم السودان على ضوء ما أشار به مشايخ البلاد ؛ فربط على الساقية ٢٠٠ قرشاً ، ٢٥ قرشاً ضريبة الفدان فى الجزائر ، ٢٠ قرشاً ضريبة الفدان الجروف ، وجعل طريقة الجباية بوساطة المشايخ الذين ينتخبهم الأهالى لذلك وهؤلاء يؤدون ماجمعوه للمديرية رأسا ، ويقدم للشيخ نظير خدماته مكافأة مال ساقية عن كل خمس وعشرين منها .

٦ — وحفظا للأمن وإخماد الثورات وحوادث التمرد والعصيان رؤى أن تبقى الأورط فى السودان ، ولكن لاتسلط على الأهالى وألا يوكل إليها جمع الضرائب .

٧ — ولم يترك سعيد السودان إلا بعد أن ترك تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع ، وتشجيع السكان لعمل الحدائق فى منازلهم ، وأمر ألا تربط أموال على الأطيان التى تغرس بالأشجار المثمرة . وترغيبا لسكان الجبال أمر أن تربط الضرائب على ثلث المحصول فقط وأن يفهموا بأنهم أحرار وليسوا بعبيد ، وترك أيضا نظاما يكفل اتصال المديريات مع بعضها البعض ومع مصر بالبريد .

٨ — هذا النظام بعد أن طبق بدأ يظهر فيه الخلل بسبب تمرد وعصيان بعض المشايخ الكبار على المديرين لزوال هيبة الحكمدارية ، وبدأ بعض المشايخ يتلاعب بالأموال ويظلم السكان، لذلك كله انهالت الشكاوى على القاهرة تطلب تغيير هذا النظام ، وبذلك انتهت حقبة سعيد بتغيير سياسته التى لم تفلح بالرغم من اهتمامه ونواياه الحسنة نحو السودان .

ثالثاً : <u>إدارة اسماعيل وفتوحاته فى السودان :</u>

(أ) <u>الإدارة :</u>

١ — عين موسى حمدى باشا حكمدارا للأقاليم السودانية ، وحافظ على إشراك السودانيين فى الحكم استمراراً لسياسة اسماعيل ، ولكنها رتبت على أساس المركزية .

٢ — عين الشيخ أحمد أبو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسنار ، وهو أول سودانى يشغل هذا المنصب ، وبقاؤه فى وظيفته لمدة عشر سنوات ، وعدم الاضطراب فى منطقة نفوذه طول سنى حكمه كلها ، أمور برهنت على كفاية السودانى ومقدرته الإدارية .

٣ — ألحق إسماعيل منطقتى سواكن ومصوع نهائيا بالسودان ، فكتب للباب العالى بضرورة هذه المسألة لاتصال العربان فى طريق التاكة بهما ، وباتصالهما تجاريا ببقية أنحاء السودان ، ثم هو لا يستطيع السيطرة التامة على منع تجارة الرقيق إلا بالهيمنة الإدارية على هذين الميناءين ، وعضد مسعاه الرسمى بمساع خصوصية بوساطة من بيدهم الحل والعقد فى الآستانة ، وصرف فيه مبلغا من الذهب وأخيراً كلل مسعاه بالنجاح .

٤ — اهتم جعفر باشا الحكمدار الجديد بتعمير وتجديد الخرطوم ، فأدخل نظاما إداريا بإنشاء ضبطية لحفظ الأمن وتعيين مأمور لها ، وقوة من القواصة مهمتهم تشبه مهمة البوليس فى وقتنا هذا ، وطبق هذا على بقية المدن الكبيرة وأمر ببناء مستشفى فى مكان طلق الهواء ، وبناء القشلاق فى مكان مناسب بعيد عن البلدة ، ونبه على أن تكون شوارع المدينة متسعة منظمة . وترغيباً للناس فى العمارة والبناء أخذت الحكومة تبيع لهم مواد البناء بالثمن الأساسى دون ربح .

٥ — قرر فصل السودان الشرقى (محافظتى سواكن ومصوع ومديرية التاكة) وذلك لصعوبة إدارته تحت حكومة مركزية مقرها الخرطوم ، وعين ممتاز باشا محافظا عليها ، وانهمك هذا فى تحسين مرفأ سواكن وعمرانها وكذلك فى النهوض بالزراعة وخاصة القطن فى طوكر وكسلا ، وطلب المحالج والآلات اللازمة لتجهيزه للتصدير ولو أن الثمرة التى جنتها البلاد من مجهوداته لم تكن كبيرة نظرا لصعوبة المواصلات إلا أنه يمثل طبقة من الحكام رأوا أولى مهامهم عمران البلاد وزيادة ثروتها الإنتاجية .

٦ — فى نفس الوقت كان حسين بك مدير السودان البحرى يقوم بنفس الاهتمام بالزراعة فى إقليمه، فواصل حفر الترع حتى تزرع أكبر مساحة ممكنة زمن الفيضان، وشجع تعمير السواقى.

وعلى العموم كان عهدا جعفر وحسين حقبة عمرانية لم يعرف لها السودان مثيلا فى كل عهد التركية السابقة من حيث الزراعة.

٧ — أنشأ إسماعيل باشا فى زمن حكمدارية موسى باشا خمس مدارس فى عواصم المديريات وهى: بربر والخرطوم ودنقلة والأبيض وكسلا، على غرار المدارس المصرية آنذاك، كما بذل إسماعيل الإعانات من المعية إلى عدد كبير من المساجد التى تدرس القرآن والعلوم الشرعية.

وقد أدت هذه المدارس النظامية خدمات لا مثيل لها للإدارة السودانية، بأن أمدتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف، وأحدثت نهوضاً فى الثقافة والأدب فى ربوع السودان، بينما كان العلم قبلها مقصوراً على خلوات القرآن ومجالس العلوم الشرعية.

٨ — اهتم اسماعيل بربط السودان ومصر بخطوط تلغرافية، ومد الخط أولا إلى أسوان، وفى سنة ١٢٨٦ هـ اتصلت الخرطوم بالقاهرة واستمرت عملية مـــد الخطوط فى بقية السودان حتى تم الاتصال أخيراً بدارفور غربا والقضارف وكسلا وسواكن ومصوع شرقا، وفازوغلى جنوبا.

أما عن مشروع السكة الحديدية وربط مصر بالسودان بها فإن إسماعيل لم يأل جهدا فى هذا السبيل بل درس جميع احتمالات المشروع بوساطة مهندسين وخبراء فنيين أجانب ومصريين، واستقر الرأى بعد الدراسة على عمل السكة الحديدية محاذية للنيل، وخصصت إيرادات مديريتى دنقلة

وكردفان لكل مايتعلق بالسكة الحديد السودانية ، وبدأ التنفيذ فعلا فى سنة ١٢٩١ هـ ، ولكن ما لبث أن أوقف الاستمرار فى العمل عند ما بدأت ارتباكات إسماعيل المالية .

(ب) الفتوحات فى بحر الغزال ودارفور وخط الاستواء :

١ — عرف الرق فى السودان قبل فتح محمد على له ، وعرف السودان تصدير الرقيق إلى مصر وإلى بلاد العرب قرونا ، وعلى العموم كان الرق ناحية اجتماعية انغرست جذورها فى الماضى وألفها الناس أزمانا . واندفع محمد على كما قدمنا لفتح الأقاليم الجنوبية لأسباب من أهمها استجلاب العبيد لانتظامهم فى سلك الجندية ، ونشطت تجارة الرقيق بعد الفتح ، ولكن لما جاء عهد إسماعيل تنبه ونبه بوساطة الدول الأوربية إلى وجوب محو الرق وتشدد إسماعيل فى تنفيذ سياسته الخاصة بوجوب محو الرق والضرب على أيدى النخاسين ومعاقبة الموظفين الذين يتهاونون فى تنفيذ أوامره .

٢ — لما وصلت الأخبار لاسماعيل بأن هذه التجارة البغيضة ، على الرغم من أوامره الصارمة لاتزال قائمة فى السودان ، رأى ألامناص من ضم الأراضى التى يتلاعب فيها هؤلاء التجار إلى ممتلكاته نهائيا ، ووضع حامية فيها ، وإظهار سطوة ونفوذ الحكومة . فعهد إسماعيل إلى الحكمدار جعفر مظهر باشا بأن يضم جهات بحر الغزال ، وكانت سلطة الزبير زعيم التجارة فى هذه الجهات هى السلطة التى يخشى بأسها ولقد رأى الزبير بثاقب فكره بعد أن أبدى مقاومة ناجحة لقوة الحكومة . أن يطلب الأمان ، فعفا عنه الخديوى وعينه مديرا لمديرية بحر الغزال . وهو فى طريقه للخرطوم عن طريق دارفور وكردفان قطع عليه

عربان الرزيقات وغيرهم الطريق ، فحاربهم وانتصر عليهم . ولكن هؤلاء استنجدوا بملك دارفور ، فأجارهم مما اضطر الزبير إلى قتله وفتح بلاده حيث دخل الفاشر العاصمة فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ . ولما وصلت الأخبار إلى إسماعيل باشا أنعم على الزبير برتبة « اللواء » . وبعد وصول الزبير إلى الفاشر بخمسة أيام وصلها إسماعيل أيوب حكمدار السودان بحملة قوية كانت قد أعدتها مصر لمعاونة الزبير فى مهمته . ولكن هذا الحكمدار داخلته الغيرة والحسد للزبير لما قام به من أعمال مجيدة ، وتجلت هذه الغيرة وهذا الحسد فى الفترة التى بقى فيها الحكمدار مع الزبير فى الفاشر ، وفى الاقتراحات المتعددة المتناقضة التى كانت تدور كلها حول إبعاد الزبير والشل من سلطته ، ولم ينقذ الموقف إلا إبداء الزبير رغبته فى زيارة الخديو فى القاهرة ، فكان له ما أراد .

٣ — تمت عملية الفتح والضم فى بحر الغزال ودارفور بطريقة لم تكلف الحكومة مالا أو خسارة فى الأرواح ، أما خط الاستواء فقصته تختلف عن ذلك ، فقد كلف الخديوى إسماعيل المستكشف الانجليزى صمويل بيكر بمهمة ضم هذه البلاد لأراضى السودان نظير عقد طلبه بيكر لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ العشرة الآلاف جنيه . فاستعدت الحكومة فى مصر والحكمدارية فى السودان لهذا الأمر ، وبعد أن تم الاستعداد استمرت الحملة جنوبا حتى وصلت الخرطوم وبعد أشهر من وصوله استأنف السير جنوبا حتى وصل غندكرو مقر رياسته فى ١٥ إبريل سنة ١٨٧١ ، وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ غادرها معتزلا الخدمة لأن عقده قد انتهى ، بعد أن ظل فى خط الاستواء ما يزيد على السنتين يقوم بمهمة الفتح وضم الأراضى . وقد ترك بيكر نتيجة

لمجهوداته ثلاث محطات عسكرية ، يرفرف عليها العلم المصرى ، ولكن نفوذ الحكومة لم يكن يتعدى أميالا بسيطة من تلك المحطات ولم تستطع كسر شوكة تجار الرقيق .

٤ — كان إسماعيل شديد الرغبة فى مواصلة الأعمال التى بدأها بيكر من ناحيتى التوسع وإبطال الرق . وقبل الضابط الإنجليزى غوردون أن يكون خلفا لبيكر بمرتب سنوى قدره ألفا جنيه فقط ، فأطلق إسماعيل يده فى مديرية خط الاستواء ، ورسمت له الحكومة المصرية — على ضوء توصيات وتقارير بيكر — الخطة التى يجب أن يتبعها فى حكم هذه البلاد . وغادر غردون القاهرة ومنها إلى الخرطوم ثم قاشودة ثم وصل غندكرو مقر حكمه فى ٢٢ مارس سنة ١٨٧٤ وهناك قوبل بكل ترحاب من جنود الحامية وعلى رأسها رءوف بك الذى ظل مشرفا على إدارة المديرية بعد مغادرة بيكر لغندكرو . ولما فتكت الملاريا والأمراض بجنوده نقل العاصمة إلى اللادو لارتفاعها ، وهناك بدأ بتنفيذ أهم الأغراض التى تعاقد من أجلها مع الحكومة ، والتى تحويها التعليمات الخديوية وهى : فتح الطريق إلى البحيرات وتأسيس محطات عسكرية قريبة من بعضها لتكون خطا متصلا من المواصلات ، فنجح فى ذلك وفى جذب قلوب الأهلين حتى بدأوا يتعاملون ويتعاونون مع الحكومة على أساس استعمال النقود كما يرجع إليه الفضل فى تحسين العلاقات بين مصر وملك أوغندة .

(حـ) امبراطورية إسماعيل وحكمدارها غردون :

١ — بعد أن تم فتح دارفور ، وبعد أن أسس غردون محطاته العسكرية صاعدة فى النيل إلى قرب البحيرات . وبعد أن اتسعت الفتوحات فى شرق السودان وضمت أراضى أرتريا الحالية والصومال البريطانى وهرر فى الحبشة ، وصلت إمبراطورية إسماعيل إلى قمتها ،

وأصبحت أملاكه تبدأ من ساحل البحر المتوسط إلى خط الاستواء ، ومن سواحل البحر الأحمر إلى شرقى بحيرة شاد .

وفى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٧٧ قابل غوردون إسماعيل فى القاهرة بعد عودته من إجازته فى انجلترا ، حيث عينه الخديوى حكمداراً على عموم الأقاليم السودانية بسلطات لم تعط لأحد قبله ، ولفت نظره لأمرين هامين وهما : إلغاء الرق وتحسين المواصلات .

٢ — غادر غردون القاهرة ميمما وجهه شطر مصوع ليتفقد رعاياه ، وليحاول حل مسائل الحدود مع الحبشة إن أمكن كما أمره الخديوى . وعندما وصل مصوع تهافتت عليه البرقيات من الفاشر تعلن قيام ثورة هارون أحد أمراء بيت دارفور المـالك ، وتحرج مركز الحامية المصرية هناك ، لذلك نجد أنه يرحل إلى الخرطوم فيصلها فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ بعد شهرين من مغادرة مصوع ، وبعد أسبوعين غادرها إلى دارفور يحمل فكرتين أساسيتين هما : أن سليمان بن الزبير صغير السن وغير موال للحكومة ، وأن عصيان أهالى دارفور مرده ثقل الضرائب وسوء معاملة الأهلين . لذلك رفع من شأن خصوم الزبير وابنه ، وخفف الضرائب ومنح الرتب والنياشين للموالين للحكومة وعين بعضهم فى الوظائف الحكومية الهامة .

بعد ذلك ذهب شمالا لزيارة الجزء الشمالى من حكمداريته ، حتى وصل دنقلة فحط عن الناس الكثير مما كانوا يشكونه .

٣ — تركنا الزبير باشا يصل القاهرة بما معه من هدايا عديدة للخديوى ، حيث قوبل بالحفاوة ، ولما رغب فى العودة إلى بلاده استشار إسماعيل ، غوردون فى أمر الزبير ولكن الأخير نصح بعدم عودته خوفاً من نفوذه بينما عين إدريس بتر أحد أعوان الحكومة مديراً لبحر الغزال وأمر سليمان بن الزبير بقبول هذا الوضع رغم أنفه ، ولكنه لم

يستطع الصبر على هذا فقام بثورة ضد المدير وضبطت مراسلات بينه وبين والده تحرضه على ذلك ، فاصدر غردون أمره بضبط منازل الزبير بالخرطوم والقبض على أقاربه وسجنهم أينما وجدوا ، وبيعت محتويات البيوت بالمزاد العلنى ووردت لخزينة الحكومة ، ولما احتج الزبير فى القاهرة على هذا التصرف أمر الخديوى بالإفراج عن الجميع . لكن غوردون شكل مجلساً عسكرياً فى الخرطوم قضى هذا بإدانة الزبير وابنه وحكم عليهما بالإعدام ، لكن مجلس الأحكام فى مصر لم يوافق على هذا .

واستمر سليمان فى ثورته حتى أرسل إليه غردون حملة من الخرطوم فى ١٥ يوليو سنة ١٨٧٨ بقيادة جسّى الطليانى تمكنت فى النهاية من القضاء على الثورة وقتل قائدها .

٤ — لما يئس غوردون من الاستفادة بالوطنيين فى إدارة البلاد كما يئس من المصريين قبلهم ، اتجه نحو استخدام الإنجليز بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة ، وهدد بالاستقالة إذا لم يجب طلبه فوافق الخديوى على ذلك ، وفى هذه الأثناء عزل إسماعيل وغادر مصر وتولى بعده ابنه توفيق ، فقدم غوردون استقالته بعد أن خلف وراءه عدداً من الناس حانقين عليه منهم : تجار من الرقيق وأقارب الزبير ، ومنهم الموظفون الذين أنزلهم من مناصبهم ومنهم العنصر الحاكم فى مصر لأنه عين عدداً من الأوربيين دلالة على طعنه فى الموظفين أبناء العرب كما ذكر ذلك صريحا .

٥ — عين مجلس النظار محمد رءوف باشا فى منصب حكمدار السودان خلفاً لغوردون ، وحدد سلطته وطلب إليه أن يرجع فى الأمور الهامة إلى النظارات المختصة ، وقدر لرءوف هذا أن يكون آخر الحكمداريين فى العهد المصرى قبل شبوب الثورة المصرية .

الدولة المصرية
عام ١٨٨٢

والصورة العامة التى يمكن أن نستخلصها من العهد كله أن السودان فتح لتأثير المدنية تعمل فيه عن طريق مصر وتوحدت أجزاؤه المختلفة تحت إدارة واحدة ممعنة فى المركزية غير أن هذه الإدارة تفشت فيها حوادث الرشوة والاختلاس وزاد عبء الضرائب واستخدمت طرق الظلم فى تحصيلها مما لطخ سمعة الإدارة من هذه الناحية ، لكن لا يمكن أن ننسى أعمال إسماعيل الإنسانية فى السودان : كإبطال الرق وعمل شبكة التلغراف وإنشاء المدارس والصرف على المساجد . . الخ

رابعا : حكام السودان منذ فتحه حتى قيام الثورة المهدية .

الاسم	تاريخ التعيين	ملاحظات
عثمان بك	جمادى الآخرة ١٢٣٩ — فبراير ١٨٢٣	
محو بك	شوال ١٢٤٠ — مايو ١٨٢٥	
على خورشيد باشا	جمادى الآخرة ١٢٤١ — يناير ١٨٢٦	أول من تلقب بحكمدار
أحمد باشا أبو ودان	صفر ١٢٥٤ — إبريل ١٨٣٨	أول منظم
أحمد باشا المنكلى	شوال ١٢٥٦ — اكتوبر ١٨٤٣	
خالد باشا	الحجة ١٢٦١ — ديسمبر ١٨٤٥	
عبد اللطيف باشا	الحجة ١٢٦٥ — اكتوبر ١٨٤٩	
رستم باشا	ربيع الأول ١٢٦٨ — ديسمبر ١٨٥١	
إسماعيل باشا حقى	رمضان ١٢٦٨ — يونية ١٨٥٢	
سليم باشا	رجب ١٢٦٩ — ابريل ١٨٥٣	
على باشا سرى	جمادى الآخرة ١٢٧٠ — مارس ١٨٥٤	
على باشا جركس	ربيع الآخر ١٢٧١ — ديسمبر ١٨٥٤	
الأمير محمد عبد الحليم	ربيع الأول ١٢٧٢ — نوفمبر ١٨٥٥	

الاسم	تاريخ التعيين	ملاحظات
أراكيل بك	جمادى الأولى ١٢٧٣ — يناير ١٨٥٧	مديرون للخرطوم
حسن بك سلامة	رجب ١٢٧٥ — فبراير ١٨٥٩	حقبة لا مركزية -
محمد بك راسخ	الحجة ١٢٧٧ — يونية ١٨٦١	فى عهد سعيد
موسى باشا حمدى	القعدة ١٢٧٨ — مايو ١٨٦٢	
جعفر باشا صادق	المحرم ١٢٨٢ — مايو ١٨٦٥	
جعفر باشا مظهر	شعبان ١٢٨٢ — ديسمبر ١٨٦٥	
ممتاز باشا	رجب ١٢٨٨ — سبتمبر ١٨٧١	مدير عموم قبلى السودان
إسماعيل باشا أيوب	شوال ١٢٩٠ — نوفمبر ١٨٧٣	مدير عموم ثم صار حكمدارا
غوردون باشا	صفر ١٢٩٤ — فبراير ١٨٧٧	
محمد رءوف باشا	صفر ١٢٩٧ — يناير ١٨٨٠	

الفصل الخامس

السودان والمهدية

١ — الثورة المهدية وأثرها فى انهيار الإمبراطورية المصرية السودانية :

(أ) أسبابها : من الوقائع الموجبة للالتفات أن الثورة المهدية فى السودان والثورة العرابية فى مصر حدثتا فى وقت واحد ، وأن انجلترا استغلت قيام كل من الثورتين لتحقيق مطامعها الاستعمارية . فهى قد اتخذت من قيام عرابى بثورته فرصة للتدخل فى أحوال مصر بشكل جدى أدى إلى احتلالها . وهى قد حالت دون اتخاذ مصر الإجراءات اللازمة لمنع استفحال ثورة المهدى وهى فى مهدها ، بل إنها طلبت إلى توفيق إخلاء السودان تحقيقاً لمطامعها الاستعمارية ، ثم عملت إنجلترا بعد ذلك على استرداد السودان لصالحها وحدها ، وهكذا شارك السودان مصر فى المصير الذى أدت إليه السياسة الاستعمارية ، التى انتهجتها إنجلترا إزاء وادى النيل .

وتبدأ قصة الثورة المهدية سنة ١٨٨١ عندما قام أحد المتصوفين اسمه محمد أحمد بن عبد الله فى جزيرة « أبا » التى تقع على النيل الأبيض يدعو إلى نفسه بأنه المهدى المنتظر ، ويحرض الناس على عصيان الحكومة ، ويحذرهم من مخالفته . وصادف قيام المهدى بدعوته قيام عوامل مهدت لقيام الثورة ، ومهدت لنجاح هذه الدعوة ، وسرعة انتشارها ، ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — فساد الحكم فى السودان وسوء معاملة الأهالى : إذ أن حكام السودان الذين عينهم الخديو وأغلبهم من الترك والشراكسة كانوا على جانب كبير من الظلم والقسوة وإرهاق الأهلين ، وكانت أغلبيتهم تتخذ الوظائف وسيلة للرشوة وللإثراء . ولم تكن الحكومة ترسل إلى السودان فى الغالب إلا الموظفين المغضوب عليهم ، ومثل هؤلاء الموظفين لا ينتظر منهم العدل أو الاستقامة فى أعمالهم . أضف إلى هذا أن الخديو وحكومته جروا على سياسة تولية بعض الأوربيين كبرى المناصب فى السودان ، ولم يكن هؤلاء الأجانب مخلصين لمصر ، فزادوا بأعمالهم ومظالمهم روح الكراهية فى نفوس الشعب .

٢ — منع تجارة الرقيق واحتكار حكومة الخديو تجارة العاج ، ونظراً لأن تجار الرقيق السودانيين كانوا يمثلون فى بلادهم طبقة قوية من التجار والأعيان ، وأن حرمان الحكومة لهم ممارسة هذه التجارة ، التى كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة ، سيفقدهم هذا المركز وهذه الأرباح ، لذلك انقلبوا عليها وانضموا إلى الثائرين . كذلك أدى احتكار الحكومة تجارة العاج فى عهد غوردون ، إلى استئثار الحكومة بأرباح هذه التجارة دون أربابها من السودانيين ، فنقم هؤلاء على الحكومة وانضموا إلى الثورة بعد نشوبها .

٣ — ومن العوامل الأخرى التى أعانت على انتشار حركة المهدى نجاحه فى مقاومة قوة الحكومة وانتصاره عليها فى كثير من المواقع .

٤ — ثم إن الجيش المصرى فى السودان عند ظهور حركة المهدى ، كانت تنقصه كفاية القيادة والنظام ، كما أن إدارة السودان كان يتولاها آنئذ حاكم من أضعف الحكام وأقلهم شجاعة .

٥ — كان لقيام الحركة العرابية وانتشار الآراء الثورية والقومية ومعارضة استبداد الخديو وحكومته ، أثر تسرب إلى السودان ومهد الطريق لحركة المهدى . كذلك تهاون الحكومة المصرية فى كبح جماح الثورة وهى فى مهدها كان من العوامل التى ساعدتها على النجاح .

وفى الحقيقة ، إذا كان المؤرخون يقولون فى أسباب الثورة بسوء إدارة الحكمدارين وكثرة الضرائب والتعسف فى جمعها وتوقف الإصلاحات ، فيجب ألا ننسى أن هذه الأسباب جميعاً تشكل أسباب الثورات فى كل زمان ومكان ، وأن هؤلاء المؤرخين يتناسون أن بين الحكمداريين الصالح والطالح ، وأن سوء الإدارة لم يكن الشكل العام للحكم المصرى بالسودان ، وأن الخطير فى موضوع الضرائب لم يكن كثرتها بقدر ما كان من عدم إقبال القوم على دفعها لحكومة مركزية لم يألفوا قيام مثلها فى العهود السابقة للحكم المصرى . ويترتب على ذلك أن يفسر أى مجهود لجمع الضرائب بالتعسف فى ذلك الجمع ، أما توقف الإصلاحات فهذا الأمر لا يقبله الوضع التاريخى للمسألة .

أما الأسباب الأساسية التى أدت إلى قيام الثورة المهدية ، فكلها تنصب فوق رأس غردون حكمدار السودان قبل قيام الثورة ، والذى باض بيضها على حد قوله هو نفسه : إذ كانت إدارته فوضى ، وحارب تجارة الرق بقسوة ترتب عليها تأليب تجار الرقيق — وهم عظماء سودان ذلك العهد — على الحكومة ، الأمر الذى دفعهم إلى الانخراط فى صفوف أتباع المهدى ، حال قيامه بالثورة بالإضافة إلى أن غردون ملأ السودان بعصابة ضخمة من الأجانب الذين لا يعرفون السودان ،

ولا يعرفهم أهله ، ولم يحترم شعور الأهلين وعاداتهم ، واستهتر بالتقاليد الإسلامية .

(ب) حوادث الثورة :

١ — وقعة أبا : لما سمع الحكمدار رءوف باشا بأخبار المهدى ، أرسل ليستدعيه ليبرىء نفسه من التهم المنسوبة إليه ، ولما امتنع المهدى وأصر على موقفه ، اضطر رءوف إلى أن أرسل قوة من (٣٠٠) جندى إلى مقره لإحضاره بالقوة . لكن المهدى وأتباعه تمكنوا من القضاء على عدد كبير من هذه القوة فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ ، كما انتصر مرة أخرى على قوة حكومية مكونة من (٣٠٠٠) جندى ، كان قد أرسلها إليه الحكمدار لنفس الغرض : ونتيجة لهذه الانتصارات ازداد نفوذ المهدى وانضم لحركته كثير من الناس . ولكى يكون فى مأمن من الحكومة ، رحل هو وأتباعه حتى استقر فى مكان جنوبى كردفان .

٢ — عين عبد القادر حلمى حكمدارا للسودان بعد عزل رءوف فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، فأظهر هذا من الهمة وحسن التنظيم ما كاد يكفل لمصر الانتصار على الحركة المهدية ، فاستطاع أن يطارد الثوار ، ويحصن الخرطوم ويرفع حصار الدراويش عن سنار ويطهر شرق السودان والجزيرة منهم ، ويحصر الحركة المهدية فى غرب السودان حيث اعتصمت بكردفان ، واستولى على الأبيض وبارا . ولم يترك عبد القادر حلمى حيلة فى محاربة المهدى إلا أتاها ، الأمر الذى أدى إلى أن المهدى أوصى أنصاره بالدعاء بصوت عال فى ختام كل صلاة : « اللهم ياقوى يا قادر ، اكفنا شر عبد القادر » . وإذا كانت إجراءات عبد القادر الحربية فى الجزيرة تمت كلها بنجاح ، فإنه كان يعرف أن سلاح

الدعاية — الذى استخدمه المهدى — قوى ولا بد من مقاومته . لذلك أصدر رسائل ومنشورات وفتاوى من الخرطوم ووزعها فى كل أنحاء السودان ، ليقارنها الناس بخطابات ومنشورات المهدى لعلهم يؤمنون ، ويعتنقون أقوال الحكومة .

٣ — لكن هذه الأعمال لم ترق الإنجليز الذين كانوا قد احتلوا مصر فى هذا الوقت فأوعزت إلى الحكومة المصرية باستدعاء عبد القادر حلمى فى مارس سنة ١٨٨٣ ، وعينت بدلا منه رجلا أقل كفاية ، وهو علاء الدين وعين الضابط الإنجليزى (هيكس) رئيساً لأركان حرب الجيش فى السودان . وكان هذا التعيين لرجل مسيحى لإخماد الثورة الدينية سبباً فى إثارة روح التعصب فى نفوس الثوار ، وازدياد أتباع الحكومة . ثم إن خبرة (هيكس) الضحلة أوقعته فى أخطاء كثيرة كان سبباً فى علو شأن المهدية . فقد آثر مهاجمة الأنصار (الدراويش) فى معاقلهم فى كردفان ، مع جهله بضروبها واستعدادات المهدية فيها . إذ خرج على رأس قوة من عشرة آلاف لاسترداد الأبيض فى شهر سبتمبر بحره الشديد ومياهه غير المتوافرة ، وشق طريقه بعد الدويم إلى الأبيض وسط غابة (كشجيل) فباغته الأنصار هناك وأفنوهم عن آخرهم تقريباً . وقد وصل « كرومر » إلى مصر من انجلترا بعد سفر الحملة بعدة أيام ، فكتب عنها : « .. إنه لم يعثر على كتابة من الجنرال هكس يستدل منها على عدم استصوابه لتلك الحملة ، ولكن لا ريب عنده فى أن هكس كان عالماً حق العلم بأن الجيش الذى تحت قيادته لم يكن صالحاً للقتال . » ومع ذلك فلم يشأ أن ينصح الحكومة بالعدول عن إرسال الحملة . . . حتى يقال عنه إنه تردد فى أداء مهمة محفوفة بالأخطار ! ؟ ؟ .

وفى الحقيقة أن هذا التأويل من كرومر لا يتفق مع الواقع ، ويظهر هذا جيداً فى الطريقة التى ألفت بها الحملة . فقد رأينا أن هكس قد قدم استقالته لكى يزيل من أمامه أكبر مخالف له ألا وهو سليمان نيازى باشا الضابط الوحيد الذى يعلوه ، فيقال هذا من منصبه ليخلو له الجو .

وكان لانتصار المهدية على هكس دوى هائل فى السودان . فأرسل سلاطين باشا حاكم دارفور يدعو المهدى إلى تسلم البلاد وتأمين أهلها ، كما أرسل المهدى حملة استولت على إقليم بحر الغزال .

٤ — وعلى هذا الأثر انتهزت إنجلترا الفرصة وطلبت إلى الخديو إخلاء السودان وسحب الجيش المصرى منه . وعارض فى ذلك شريف باشا رئيس الوزارة فى هذا الوقت ، نظراً لما يحدثه التخلى عن السودان من ضرر بمصالح مصر سياسياً واقتصادياً . ولما وافق الخديو توفيق على الإخلاء استقال شريف محتجاً على ذلك ، وخلفه نوبار باشا ، الذى قبل الإخلاء على النحو الذى ترغبه انجلترا . وكان معنى هذا انهيار ملك مصر فى إفريقية . وكاد يتم الاتفاق بين الحكومة المصرية وكرومر على ذهاب عبد القادر حلمى إلى السودان لتنفيذ الإخلاء . لولا أن اختلف هذا مع كرومر فى التصريح فى السودان بالإخلاء أو عدم إخلائه . فالأخير يرى وجوب إعلانه ، وعبد القادر يرى أن الإعلان يقود إلى ارتباك الأمور وعرقلة الانسحاب وفساد الخطة ، وبذا تقرر عدم سفر عبد القادر إلى السودان لإخلائه . وعهدت إنجلترا إلى الجنرال غردون ، القيام بهذه المهمة . فأذاع هذا وهو فى طريقه إلى الخرطوم سنة ١٨٨٤ أنه موفد لإرجاع الجيش المصرى إلى بلاده ، وترك السودان لأهله ، وعند ما وصل إلى الخرطوم أذاع منشوراً بين الأهالى أعلن فيه أن السودان قد

فصل عن مصر فصلا تاماً ، وبعث للمهدى يدعوه للكف عن القتال ويمنحه لقب سلطان كردفان ، وأرسل مع الكتاب هدية ردها المهدى إليه . وكان لهذه التصريحات أثر كبير فى القضاء على هيبة الحكومة ، وصرف قلوب الأهلين عنها ، وزيادة نفوذ المهدى .

٥ — استمر المهدى فى بسط سلطانه بخطوات واسعة ،وتقدم بقواته فحاصر الخرطوم ، فعدل غوردون عن سياسة المسالمة واستعد للدفاع والمقاومة ، وأرسل يطلب المدد من مصر ، ولكن هذا المدد لم يصل إلا بعدسقوط الخرطوم وذبح غوردون . حيث سقطت فى أيدى الدراويش فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ ، وقتلوا غردون وذهبوا برأسه للمهدى . وطلبت الحكومة الإنجليزية من الحكومة المصرية جعل حدودها الجنوبية فى وادى حلفا ، تأييداً لفكرة إخلاء السودان ، وأذعنت الحكومة المصرية لذلك وأخلت دنقلة . وقررت فى يونية سنة ١٨٨٥ جعل حدودها جنوب حلفا ، فجاء هذا نذيراً بانحلال الإمبراطورية المصرية وانتهاء الحكم المصرى فى السودان ، وأصبح جنوب الوادى فى نظر الدول أرضاً لا صاحب لها فسعت كل منها لاقتناص جزء من أراضيه إن آجلا أو عاجلا .

٦ — توفى المهدى سنة ١٨٨٥ بعد أن أصابته حمى خبيثة . وتولى حكم السودان بعده خليفته عبد الله التعايشى ، ولم يكن له المقام الذى كان للمهدى ، ولا نفوذه الروحى ، كما أنه لم تكن له كثير من المزايا الذى اجتذب بها المهدى قلوب أنصاره . وفى عهده كثرت المظالم ، وانتشرت الأوبئة والمجاعات ، وبهذا كانت ولايته إيذاناً بتداعى الدولة المهدية . ولكن الانجليز أخذوا يبالغون فى قوته ، ويظهرون القلق من

اعتزامه غزو مصر ، لكى يبرروا بقاءهم فى البلاد لحمايتها من غزو الدراويش . وبعد جلاء القوات المصرية عن دنقله ، احتل الدراويش هذه المدينة ، وأخذوا يمكنون لأنفسهم فى الأقاليم الشمالية . وفى سنة ١٨٨٩ عهد التعايشى إلى عبد الرحمن النجومى بقوة كبيرة لمهاجمة حدود مصر الجنوبية ، فدارت بينه وبين المصريين — ومعهم فرق من جيش الاحتلال — معركة عند توشكى جنوب وادى حلفا ، انهزم فيها المهديون ، وأسر عدد كبير منهم ، وقتل عبد الرحمن النجومى وكانت هذه الواقعة وما ناله الجيش المصرى فيها من نصر حافزاً للحكومة المصرية على محاربة الثوار فى السودان وبخاصة عندما ترددت الأنباء عن سوء أحوال السودان فى عهد التعايشى ، غير أن انجلترا لم تؤيد فكرة استعادة السودان إلا سنة ١٨٩٦ : على أساس إرسال جيش مشترك من الإنجليز والمصريين إليه ، حتى تكسب نفسها بذلك حقا فى السيطرة على هذه البلاد .

٢ — السودان تحت حكم المهدية :

(أولا) تعاليم المهدى الدينية :

(١) طغت الانتصارات الحربية على الناحية الدينية من رسالة المهدى ، وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها ، وكان ينوى ذلك بعد سقوط الخرطوم ، لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطا فى ذلك . وعلى هذا انقضى عهد المهدية ولم يخلف لنا من الناحية الدينية إلا بعض رسائل صغيرة حفظها أو دونها من سمعها عن المهدى ، وقد يستطيع الباحث استخلاص اليسير من منشورات المهدى .

(٢) فالمهدى بنى تعاليمه على أسس منطقية فلسفية ، وركز فكرته الدينية على دعامتين دعا لهما وقام بتنفيذهما . أولاهما هى أن تعدد المذاهب واختلاف الملل والنحل الدينية ، وتلك الأكداس من الكتب والشروح ، وذلك الخضم من وجهات النظر المختلفة بين العلماء ، ليست من أصل الدين ، كل ذلك حجب نور الحق والدين ، وباعد بين المسلم وبين مصدرى الضياء وهما القرآن والسنة فهما عماد الملة ، ومن اعتصم بهما فقد فاز فوزاً مبينا .

ومن الناحية الصوفية فقد تعددت الطرق واختلفت ، حتى ظن أن كل شيخ يقوم بتأسيس دين جديد ، وأن غيره من زعماء الطرق خارج على الدين ، وحتى ضل القوم ضلالا مبينا ، وأصبحوا يوجهون أنظارهم لمشايخهم بدلا من ينبوع الدين والعرفان الأصيل : القرآن الكريم والسنة المطهرة .

والدعامة الثانية هى العمل بالدين والخضوع لنواهيه وأوامره ، والقيام بفروضه وواجباته ورأى أنه مهما سمت المبادىء ومهما صحت الأصول فالعمل بها ضرورة لازمة .

(٣) وتنفيذاً لهذين المبدأين قام بأعمال أنكرها عليه العلماء إذ أمر بإحراق الكتب إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين ، وإحياء علوم الدين للغزالى وغيرها سماها لأنصاره . ومذ أمر بذلك لأن تلك الكتب حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة . والمذاهب الأربعة يبطل العمل بها لأنها المسئولة عن إقامة السد فى وجه منبع العرفان . كما أمر بترك الطرق بقوله : « أيها الفقراء والمهاجرون والأنصار ، إن كل من كان عنده مذهب أو نص أو شيخ فليتركه ، لأن هذا أخذ من هذا ،

فقد أبعدوا من نور النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن جئنا نحيي نور النبي صلى الله عليه وسلم » .

(٤) كان المهدى فى نشر مبادئه يخاطب الناس بقدر عقولهم ، ويضرب لهم الأمثلة بما ألفوه فى حياتهم العادية ، فالعبادات تقليد لما يقوم به ، والأحكام الشرعية يشرحها فى منشورات فى متناول الفهم العادى ، وهو أثناء تبشيره يرمى إلى غرس روح الزهد والتقشف فى نفوس أنصاره .

٥ — ومن مواعظه وحكمه المختارة : إن العبد إذا لم يجتمع مع ربه فى الصلاة لم يذق لها لذة . عند دخول الوقت عجلوا إلى لقاء ربكم . الجنة محفوفة بالمكاره ، والنار محفوفة بالشهوات . قاسوا الشدائد ووطنوا نفوسكم عليها لأن النعم فى طى النقم ، والمزايا فى طى البلايا ، فمن لم يصبر على النقمة لم يجد عند الله نعمة ، ومن لم يصبر على البلية ، لم يجد عند الله مزية . الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والنعمة لا تدوم ، والأجل محتوم ، والحق معلوم ، والحياة لا تدوم ، وخير الغنى القناعة .

من نازعك فى دينك فنازعه ، ومن نازعك فى دنياك فألقها له فى نحره . الاستعانة بغير الله محل الخزلان .

٦ — أبطل المهدى جميع الأوراد ، وألف لأنصاره راتباً يقرأونه يومياً ، وهو مجموعة من الآيات والأحاديث والأدعية ، وساوى بين الناس فليس هناك من فقير أو غنى . وعمم لبس الجبة المرقعة من الخلفاء إلى المجاهد العادى ، ومنع النساء من لبس الحلى الفضية والذهبية ، وصرح لهن بالزينة فيما عدا ذلك ، ولكن داخل بيوتهن ، ويسر الزواج بتخفيف المهور ، وبساطة الولائم ، وتحريم الرقص والغناء وضرب الدفوف ،

وأبطل بدعة البكاء والنواح على الميت والمبالغة فى الحزن ، ثم إنه صب لعناته على أعمال السحر وكتابة الأحجبة وما شابهها من أعمال الشعوذة، وأقام حدود الشريعة فى من ارتكب المحرمات .

ثانياً : الناحية الثقافية :

١ — كان للمهدى ثقافة دينية أهلته للتوجيه والقيادة ، وقد استطاع أن يسخر ثقافته لخدمة غرضين :

(ا) جعل السودان كله مجتمعا دينيا كبيرا ولم يكن فى السودان فى عهد الحكم التركى مثل هذا المجتمع ، فقد كانت فيه المذاهب الدينية المختلفة والطرق الصوفية ، والديانات المتباينة ، كان حينئذ مجتمعا مدنيا كبيراً له إدارة موحدة وحكومة موحدة. أما المهدى فقد أراد أن يجعل السودان كله طريقة دينية واحدة وفى سبيل ذلك رفع المذاهب الأربعة وتفرد بمذهب اجتهادى واحد ، وفرض عليهم أن يتوضأوا كما رأوه يتوضأ ويصلوا كما رأوه يصلى وهكذا فى جميع العادات والعبادات من غير نظر لما تدون فى المذاهب الأربعة . (راجع تعاليم المهدى الدينية السابقة) .

(ب) ولعل أهم ما رسمه المهدى لهذا المجتمع الدينى الكبير أن يخلق فى نفوس أبنائه التشبث بالقومية ، وأن يشعر كل سودانى بأنه له مع إخوانه كيانا مستقلا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا بالغ فى الإعتزاز بدينه وجنسه وتراثه القومى . فالحضارة التركية فى السودان دخيلة ، والغريب عنده دخيل حتى ينخرط فى سلك القومية السودانية . وسرعان ما سرت الروح القومية إلى نفوس الناس ، فوجدوا أن حركة المهدى فيها رفعة لشأنهم ، وكانوا يفخرون بأنه واحد منهم ، فترقبوا الوقت الذى يطرد فيه الأتراك من البلاد وينفرد هو بالحكم .

٢ — ويرى المهدى : (ا) أن الحج فى الشرع لمن استطاع إليه سبيلا ، وقد قيل إنه منع السودانيين من الحج مؤقتاً حتى يتقى شر الدسائس التى كانت تحدق به خارج البلاد ، وقيل إنه كان يؤثر الجهاد عليه .

(ب) وجوب منع اختلاط الرجال بالنساء ، والتشديد على حجاب المرأة .

(حـ) أن الرق غير ممنوع ، غير أنه نهى عن الخصاء .

(ى) أن التعليم يجب أن يكون وقفاً على حفظ القرآن وراتبه .

٣ — ولقد لاحظ المؤرخون وجود شبه بين الحركة المهدية والحركة الوهابية وتعاليم السنوسية ، فى مظاهر الحياة الاجتماعية ، وفى وجوب التمسك بالقرآن والسنة ، وفى وجوب إزالة البدع التى طرأت على الحياة الإسلامية ؛ فمنع زيارة القبور وتدخين التبغ .

(ثالثاً) الناحية الإدارية :

١ — بعد سقوط الخرطوم فى يد المهدى وأتباعه فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ ، ظل بها حتى انتقل منها فى أواخر فبراير إلى مقر أم درمان الحالية ، وبنى جامعاً صغيراً بالزنك ، وبنيت البيوت من الطين والحجر وأكثرها من القش والبروش . ثم وجه المهدى همه إلى بناء صرح الدولة الجديدة المستقلة ، فضرب النقود مما غنموه من الذهب والفضة ، وأقام النظام المالى على أساس الشريعة الغراء ، حيث أمر بجمع الزكاة من المسلمين حسب الأصول الشرعية ، وتوريدها لبيت مال المسلمين ، وكون مجلساً من الأمناء للنظر فى الشئون الإدارية تحت رياسة الخليفة عبد الله ، فهم بمثابة وزارة رئيسها الخليفة . فالرسائل والقرارات — بعد موافقة

أعضاء المجلس عليها — تختم بخاتم المهدى ، وترسل إلى جهاتها المختصة . أما فى الأقاليم فقد ظل الأمراء كل فى جهته ينوب عن المهدى ، ولا يرجع إلى السلطة المركزية طالما أنه يقضى بالأحوال الشرعية ، وينفذ ما يصدر إليه من العاصمة . وبوجه عام فالإدارة الإدارية فى دولة المهدى أقيمت على غرار الحكومات الإسلامية الأولى .

٢ — بعد وفاة المهدى ترك لخليفته عبد الله بن السيد محمد الذى نشأ فى دار التعايشه فى دارفور ، مسئولية جسيمة ما كان يقوى على حملها إلا الاثنان معاً ، فرأى الخليفة وقد اضطلع بهذه المهمة الشاقة وحده أن يعين شخصاً يشد أزره ، ويقوم بتصريف أمور الدولة دونه ، حتى يتفرغ رجل المهدية الأول للرقابة العامة وبث الدعوة . فاصطفى أخاه الأمير يعقوب لهذه المهمة ، وأصبح له نفس المركز الذى كان يحتله الخليفة من المهدى . فهو المشرف على الجيش يعين قواده ويمده بالزاد والمعدات الحربية ، وهو وزير الداخلية ، وهو محافظ أم درمان عاصمة المهدية ، وهو المشرف على بيت المال عصب الإدارة ، فهو على وجه الإجمال رئيس الوزارة ووزير كل الوزارات . .

٣ — كان هيكل الإدارة والقضاء قد شيد عند ما انتقل المهدى إلى الدار الآخرة . فدستور الحكم والقضاء الشريعة الإسلامية حسبما مارسه فى حياته ، وحسبما ورد فى منشوراته . ومن خطاب المهدى إلى خليفته عبد الله بشأن القضاء قال : « أنت لك السيف وليعقوب الجيش وللقاضى الكتب » . يعنى يكتب القاضى ليعقوب ليحضر المجرم بعد الشكوى لينظر دعواه ثم يكتب جزاءه فى ورقة ويعلقها فى عنقه ثم يرسل إلى خليفة المهدى ليجرى عليه القصاص ، فى هذه الجملة أجمل

المهدى الإجراءات القانونية التى تتخذ بصدد الجريمة من حيث الضبط والمحاكمة والتنفيذ ، ووضح فيها فصل السلطات .

٤ — كانت مالية الدولة المهدية تتكون من الزكاة وجبايات أخرى على البضائع والسواقى والحدائق والغنائم الحربية ، ولكن عصب الحياة لجسم المهدية هو الزكاة الشرعية على المحصولات والأنعام والماشية والأغنام . وفى كل عمالة بيت للمال ، وفى أم درمان بيت مال المسلمين العام ، ويصرف منه على موظفى بيت المال ، وعلى آل المهدى والخلفاء ، وعلى إعداد الجيوش للغزوات . ومن مهام بيت المال صك النقود وتداولها ، وختم البضائع التى استوفت أموال العشر .

٥ — وفى عهد دولة المهدى قسمت البلاد تيسيراً للإدارة إلى عمالات يقوم على رأس كل منها عامل ، يهيمن على الجيش والإدارة، ويكون المرجع الأعلى لكل الشئون المحلية ، والصلة بين الأهالى والخليفة ، وكانت العمالات الكبرى فى دنقلا وبربر والغرب وكسلا ، ومابقى من السودان الأوسط ، تحت رقابة يعقوب ، ولكل عامل عدد من المندوبين يساعدونه فى أعماله الإدارية . وفى الحدود أمراء يتركز عملهم فى حماية ما يسمى بالثغور « البواغيز » ، يخضع كل منهم للعامل الذى يليه .

٦ — تركز الجيش كله تحت إمرة يعقوب ، والعنصر المنظم والذى بيده الأسلحة النارية هم الملازمية منهم الجهادية السود ومنهم أولاد العرب . وكانوا يتدربون على الفنون الحربية كما كانت عليه فى عهد التركية ، إلا أنهم غيروا الألفاظ بغيرها . وتكونت من بقايا الترسانة القديمة فى الخرطوم « ورشة» للأسلحة وتصليحها يشرف عليها مهندسون وفنيون من العهد التركى .

(٣) اقتسام أملاك مصر فى السودان ونهاية حكم المهدية فيه :

١ — كانت الدول وعلى رأسها انجلترا منذ إعلان انسحاب مصر من السودان قد أخذت تتواطأ فيما بينها على اقتسام أملاك مصر فى إفريقية ؛ فاحتل الإيطاليون مصوع (فبراير ١٨٨٥)، كما احتلوا بلاد أرتريا وعقدوا معاهدة مع انجلترا سنة ١٨٩١، أقرت فيها الأخيرة ما أخذته إيطاليا على حدود البحر الأحمر، وفى الصومال، كما رخصت لها باحتلال كسلا والأراضى المتاخمة لها احتلالا مؤقتاً، إلى أن تتاح الفرصة للحكومة المصرية لاستردادها.

٢ — كذلك استولت انجلترا على زيلع وبربرة سنة ١٨٨٤، ثم طمعت فى الاستيلاء على مديرية خط الاستواء، التى بقيت محتفظة بالحكم المصرى تحت رياسة أمين باشا النمسوى الأصل، رغم محاولات المهديين فادعت أن القوة المصرية وأمين باشا فى خطر هناك، وجهزت حملة برياسة الرحالة استانلى لإنقاذه. فقصد إلى زنجبار، ومنها إلى بحيرة ألبرت، حاملا معه من الخديو خطاباً يدعو أمين باشا إلى مصر، فتم جلاء أمين هذا ومن معه عن المديرية سنة ١٨٨٩، وبذلك تقلص الحكم المصرى عن مديرية خط الاستواء، وانتزعت انجلترا الجهات المطلة على بحيرة فكتوريا وبادرت بخلق مستعمرة أوغندة، وسمحت فى الوقت نفسه لملك الحبشة بالاستيلاء على هرر .

٣ — أما فرنسا فقد استولت على تاجورة (٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٤) وجيبوتى فى نفس السنة، فى الشرق، بينما أخذت تزحف من السودان الغربى طمعا فى الاستيلاء على بعض أقاليم السودان الغربية، بحجة تأمين ممتلكاتها من خطر المهدية . وقام أحد ضباطها (مارشان) بالفعل

بصحبة ٢٠٠ جندى واخترق السودان حتى وصل إلى فاشودة على النيل الأبيض ، ورفع العلم الفرنسى عليها فى ١٠ يوليةسنة ١٨٩٨ ، غير أن ذلك لم يدم أكثر من بضعة شهور ، إذ كانت مشروعات فرنسا فى التوسع فى أعالى النيل حافزاً للحكومة البريطانية على استرداد السودان . فأعدت لذلك جيشا مصريا ومعه بعض الفرق الإنجليزية تحت قيادة الضابط الإنجليزى كتشنر ، فاستمر جيش الفتح هذا حتى انتصر على الدراويش فى عطبرة (إبريل سنة ١٨٩٩) ثم فى أم درمان ، ثم دخل الجيش الخرطوم .

٤ — وبهذا الفتح انتهى حكم المهدية لبلاد السودان . وهنا نترك لكاتبين سودانيين تفسير الأسباب التى دعت إلى القضاء على حركة المهدية بهذه السرعة ، يقول أحمد يوسف هاشم : « غير أن التعصب القبلى والتدهور الخلق والجهل ، قد أودى بتلك المملكة الفتية التى قامت بيننا فى عهد دخل فيه العالم بأسره دور النور ، وظهرت المدنيات ، وعرفت الحريات وحقوق الإنسان » . ويقول محجوب : « جاءت المهدية لتنقذ الناس من فوضى سوء الأخلاق ومن ظلم الحكام ، فكان لها ما أرادت فى عهدها الأول ، ولكن الجهل قضى عليها فى عهدها الأخير بأن تكون مثاراً للتفرق القبلى من جديد . وكان ضغط القائمين بالأمر سبباً فى ضعف الأخلاق بعد أن بدأت تقوى ، فساد الدس ، وكثر الرياء ، وخفت أحلام الرجال ، إلا الذين وهبوا قوة فى الإيمان ، وصبراً على الشدائد » .

ومهما كانت الأسباب التى يسوقها هذان الكاتبان وغيرهما فى هذا المجال فيجب ألا يفوتنا أهمية العامل الاقتصادى الذى كان له قصب

السبق فى انهيار الدولة، وهذا الرأى قائم على طبيعة المجتمع السودانى أيام الثورة فقد هب الشعب السودانى كله وانضم إلى المجاهدين منهم الذين اعتمدوا فى أقواتهم على قلة من المجتمع تمده بها، حتى إذا زادت الحاجة إلى المجاهدين نقص — تبعا لذلك — عدد العاملين فى مدهم بالأقوات حتى إذا أصبحت الحاجة إلى الأقوات ماسة كان لابد من الحرب الداخلية للحصول على هذه الأقوات وكان لابد من مهاجمة القبائل غير الموالية للثورة . وبذلك يقوم تحطيم هذه القبائل على أساس تأديبها لعدم ولائها ومصادرة أقواتها لمصلحة الدولة والأنصار . . . وبذلك تضطرب الحالة الداخلية التى زاد من متاعب فوق أزمة الأقوات متاعبها الداخلية بسبب الأوبئة وغيرها مما نعدها متاعبا أساسها اقتصادى أيضا .

وهكذا تتضح لنا مدى أهمية العامل الاقتصادى فى انهيار دولة المهدى .

الفصل السادس

السودان فى ظل الحكم الثنائى

(١) استرداد السودان وعوامله :

العوامل : (١) بعد أن تم إنشاء جيش مصرى على نسق جديد فى عهد الاحتلال ، كان على هذا الجيش الناشىء حماية الحدود ، فرابطت فرق منه فى حلفا ، جعلها الأنصار (الدراويش) فى شبه استعداد للحرب بالغارات الخاطفة التى كان يقومون بها . وأخرى فى سواكن ، كانت هى الأخرى مناوشات مستمرة مع قوات عثمان دقنة أحد أتباع المهدى . فكأن الأنصار كانوا يدربون عدوهم الذى سوف يلاقيهم .

٢ — أما الناحية المالية فقد تحسنت وإن لم تصل إلى درجة الانتعاش الكامل .

٣ — ولعل أهم العوامل يرجع إلى أن الحكومة البريطانية قد تغيرت سياستها تدريجيا نحو احتلال مصر ذاتها ، فبعد أن كان إجراء مؤقتاً صارت تنظر الحكومة البريطانية إليه كإجراء مستديم واستتبع ذلك ضرورة إنعاش الحالة الاقتصادية وخاصة الزراعة . لذلك لايجوز ترك السودان فى يد حكومة قوية معارضة لمصر وتتحكم فى مياه النيل ، فتؤذى أعمال الرى . كما لايجوز ترك السودان فى يد حكومة ضعيفة لاتحفظه من طمع الدول الاستعمارية .

٤ — وكان اندحار الجيوش الإيطالية فى مارس سنة ١٨٩٦ على يد

الأحباش ، وشعور الطليان بخطر الأحباش من جهة والمهدية من جهة أخرى ، سيما فى استنجاد الحكومة الإيطالية بصديقتها بريطانيا ، لالتعاون معها بعمليات حربية ضد الحبشة ، بل للقيام بحركات حربية فى السودان سواء من الشمال أو من سوا كن تسترعى بها انتباه الخليفة، حتى لا يتم اتحاد الشعبين الإفريقيين ضد المدنية الغربية .

الفتح : بعد أن تجمعت كل هذه العوامل كان الجيش على تمام الاستعداد بقيادة كتشنر ، سار الجيش (فى مارس سنة ١٨٩٦) نحو الجنوب فاحتل دنقلة وبربر وانتصر على الدراويش فى عطبرة (إبريل سنة ١٨٩٨) ثم أم درمان ثم دخل الجيش الخرطوم ثم اتجه كتشنر ببعض جنوده قاصدا فاشودة (فى سبتمبر سنة ١٨٩٨) ، بعد أن وصلت إليه الأوامر بالحيلولة دون كسب أى حق لفرنسا . وطلب كتشنر إلى إلى القوة الفرنسية رفع الراية المصرية على فاشودة . وكان ذلك مناورة بارعة من الإنجليز ، ليجبروا الفرنسيين على الانسحاب من ذلك الإقليم للدولة صاحبة السيادة الشرعية وهى مصر . وتأزمت العلاقة بين انجلترا وفرنسا ، واضطرت الحكومة الفرنسية إلى الإذعان ، فقررت الانسحاب من فاشودة .

(٢) أسس الحكم الجديد :

١ — بعد موقعة كورى (أم درمان) فر الخليفة عبد الله إلى الغرب وتشتت الدراويش وتم لجيش الفتح احتلال سنار والروصيرص فى ١١ سبتمبر و ٢٠ أكتوبر ١٨٩٨ ، وفى السودان الشرقى صار احتلال القضارف نهائيا فى أكتوبر . وأخذت البلاد بعد ذلك تتداعى الواحدة بعد الأخرى .

٢ — لكن ما كادت إنجلترا تتخلص من شبح الزحف الفرنسى ، حتى عمدت إلى وضع سياسة تحرم على مصر مساعدة السودان على النهوض ، وإحياء الروح العربية فيه ، فابتدع كرومر — ممثل الاحتلال البريطانى فى مصر — : «آلة من طراز غريب لإدارة شئون البلاد» غنمها لبريطانيا وغرمها على مصر إذ أشركها مع إنجلترا فى حكم ثنائى ، هدفه أن تتكرر مسرحية غوردون وعملائه فى تحطيم وحدة الوطن السودانى . وفى يوم ١٩ يناير ١٨٩٩ تم التوقيع على وثيقة اتفاقية الحكم الثنائى . وحملت توقيع كرومر من الجانب الإنجليزى ، وبطرس غالى من الجانب المصرى . وتشتمل هذا الوثيقة على اثنى عشرة مادة هى :

(الأولى) تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة ٢٢ من خطوط العرض وهى :

١ — الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ أو :

٢ — الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية . قبل ثورة السودان الأخيرة ، وفقدت منها وقتيا ثم فتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو :

٣ — الأراضى التى قد تفتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً .

(الثانية) يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معاً فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ، ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى .

(الثالثة) تفوض الرياسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واد يلقب «حاكم عموم السودان» ويكون تعيده بأمر عال

خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملك ، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى ، يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

(الرابعة) القوانين وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول بها والتى من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان ، أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها ، وكيفية أيلولتها والتصرف فيها ، يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام . وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان ، أو على جزء معلوم منه ، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ أى قانون ، أو أى لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة . وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة ، وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى .

(الخامسة) لا يسرى على السودان أو على جزء منه شىء ما من القوانين أو الأوامر العالية ، أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا ، إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها .

(السادسة) المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوربيين من أية جنسية كانت ، بحرية المتاجر أو السكنى بالسودان ، أو تملك ملك كائن ضمن حدوده ، لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أى دولة أو دول .

(السابعة) لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة ، على البضائع القادمة من غير الأراضى

المصرية ، إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن ، أو أية ميناء أخرى من موانىء البحر الأحمر ، لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن .

(الثامنة) فيما عدا سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ، ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه .

(التاسعة) يعتبر السودان بأجمعه فيما عدا مدينة سواكن ، تحت الأحكام العرفية ، ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلافه بمنشور من الحاكم العام .

(العاشرة) لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصليات بالسودان ، ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

(الحادية عشرة) ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه ، وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

(الثانية عشرة) قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ ، فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها .

الامضاءات

تحريراً بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ — كرومر — بطرس غالى

وفى ١٠ يوليو من السنة نفسها عدلت الاتفاقية بخصوص إلغاء المادة الثامنة منها الخاصة بسواكن :

(٣) الأداة الإدارية :

١ — عين كتشنر أول حاكم للسودان ، وتمتع هذا الحاكم العام بسلطات مطلقة فى تنظيم الإدارة السودانية وفى غيرها من الأعمال التى يراها ضرورية لبقاء النظام البريطانى سائدا فى السودان . فقسم البلاد إلى مديريات ، وهذه إلى مأموريات أومراكز اضطلع بأعبائها ضباط الجيش المصرى من انجليز ومصريين . فالمدير الإنجليزى يساعده مفتشان انجليزيان . وعلى كل مركز يقوم مأمور مصرى ومعه معاون أو معاونان . ووضع كتشنر الإرشادات اللازمة لمن وكل إليهم أمر الإدارة وأكد كتشنر ترك الناس أحرازا فيما يعبدون ويعتقدون وأمر بتشجيع إشادة المساجد العامة فى المدن ولكنه لا يسمح بالمساجد الخاصة والتكايا والزوايا ، إلا بتصريح خاص من السلطة المركزية .

٢ — وكانت أولى لوائح كتشنروقوانينه فى حق ملكية الأراضى ، وخاصة فى المدن الكبيرة كالخرطوم وبربر ودنقلة ، وتلتها اللوائح التى تنظم الضرائب ، والقوانين الجنائية والمدنية . فوضع بمساعدة أخصائيين فى القانون « قانون عقوبات السودان » ، « التحقيق الجنائى » مراعياً فيها البساطة وسهولة الفهم والتطبيق ، وكلهما مقتبس من القانون الهندى .

٣ — بنقل كتشنر لمحاربة البوير فى جنوب إفريقية خلفه ونجت فى نفس وظيفته فنسج على منوال سلفه إلا أنه ملأ الإدارة فى السودان بشبان إنجليز من خريجى الجامعات بعد إعداد خاص لشغل هذه الوظائف ، ومنحهم الحاكم العام من الامتيازات ما جعلهم أشبه بأصحاب

الإقطاعات الواسعة فى السودان لهم كافة السيادة والسلطان على عبادهم من أهالى المديريات .

٤ — ولما كان الحاكم العام هو المرجع الأخير فيما يتعلق بإدارة شئون السودان استخدم خبراء يساعدونه فى الشئون المالية والقضائية والإدارية ، أطلق عليهم اسم السكرتيرين ، وجعل الإشراف على المديريات فيما يتعلق بهذه الشئون عن طريق هؤلاء السكرتيرين ، كل فى دائرة اختصاصه .

٥ — وظل هذا النظام معمولا به حتى سنة ١٩١٠ حين أنشئ مجلس الحاكم العام ليشاركه فى حمل عبء الإدارة وليدخل نوعا من التنظيم فى مناقشة السياسة العامة مع معاونيه فى النواحى المختلفة . ويكون رأى المجلس نهائياً فى سن القوانين والموافقة على عمل الميزانية واستشاريا فيما يتعلق بالسياسة العامة .

(٤) التقدم الاقتصادى والثقافى :

١ — خلفت حملات الفتح خطاً حديديا بين حلفا وعطبرة ، وامتد هذا الخط الحربى إلى الخرطوم بحرى فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، كما امتدت شبكة من المواصلات التلغرافية بين أجزاء السودان المختلفة والخارج ورؤى منذ البداية أنه لا يرجى للسودان تقدم اقتصادى من حيث الإنتاج والتجارة إلا بالمواصلات الحديدية ، وفى سنة ١٩٠٦ افتتح الخط ما بين عطبرة وسواكن :

٢ — وجهت الحكومة عنايتها بعد ذلك إلى الزراعة واستغلال مياه النيل مع استيفاء حاجة مصر منه أولا ، ثم استخدام ما يفيض منها لحاجة السودان ، فدرست مشروع حفر قناة فى منطقة السدود ومشروعات

تخزين على بحيرة البرت وبحيرة تانا ومشروع عمل سد بين الروصيرص وسنار لفائدة أرض الجزيرة ، وعملت تجارب زراعة القطن فبشرت بمستقبل باهر لهذا المحصول فى الأراضى السودانية .

٣ — نظمت الضرائب بطريقة عادلة لاترهق كاهل السكان ، ولاتدع وسيلة لهم للهرب منها ، وكانت النزعة الغالبة فى تنظيمها هى تفادى كل من ما من شأنه أن يثير سخط السكان بتطلب أعباء مالية ، وكل ذلك حدد بقوانين يسير على هديها الموظفون الموكول إليهم جمعها . ونظراً لأن الدخل كان أقل بكثير من المنصرف ، كانت الحكومة المصرية تقوم بتغطية الزيادة ، زيادة على نفقات الدفاع بوساطة الجيش المصرى ، مما كان من نتائجه نقد بعض الهيئات فى مصر لهذه السياسة ، فبينما الإنجليز لا يدفعون شيئا لتنمية مرافق السودان ، إلا أنهم كانوا يستأثرون بكل ما فيه ، ويهيمنون على مصائره وشئونه .

٤ — أما التعليم فقد أنشئت كلية الخرطوم الجامعية ، كما أنشئت مدارس أولية فى المدن الكبيرة واتخذت الخطوات لإنشاء مدرسة ابتدائية فى أم درمان ، تقام على غرارها مؤسسات علمية فى المدن الأخرى وتركزت آراء كتشنر فى كلية غوردون التذكارية بما يأتى : « رأيى الخاص هى أن تصرف أموال الكلية على النهوض بالتعليم الابتدائى ، وسيأتى التعليم العالى فيما بعد » ورأى مدير المعارف الانجليزى أن تقتصر أغراض التعليم فى أول الأمر على ما يعود على البلاد بانتعاش اقتصادى ، وما يقود إلى تيسير الإدارة الحكومية ، وعلى ذلك فأغراضه يجب أن تكون خلق طبقة من مهرة الصناع بين الوطنيين أولا ، ونشر التعليم بين العامة بالقدر الذى يجعلهم يفهمون الآلة التى تدير شئونهم ثانيا . وتدريب طبقة من أبناء البلاد تساهم فى إدارة دفة الحكومة فى الوظائف الصغيرة ثالثا » .

لذلك أنشئت ورش صناعية ، فى الوقت الذى كان العمل قائما بتشييد مدارس أولية نموذجية فى الخرطوم والبلاد الكبيرة الأخرى وكذلك اهتم مدير التعليم بتدريب المدرسين فأنشأ لذلك معهداً خاصاً . وفى سنة ١٩٠٥ خطت الكلية خطوة نحو المرحلة الثانوية حين أنشىء قسم ثانوى ليقضى فيه الطالب أربع سنوات مع دراسات خاصة للمعلمين والمهندسين والقضاة الشرعيين . وفى سنة ١٩٤٥ وحدت رياسة المدارس فى كلية غردون لتكون نواة جامعة السودان . وفى سنة ١٩٢٠ فتحت كلية البنات فى أم درمان لتدريب المعلمات .

(٥) المناطق المغلقة فى السودان :

١ — اتضحت أهداف السياسة الإدارية الجديدة فى السودان سنة ١٩٢٢ ، عند ماصدر قانون المناطق المغلقة بالسودان ، ولا يسمح لأحدهما كان بدخولها إلا بإذن من المدير . وهذه المناطق هى مديريات دافور وبحر الغزال ومنجلا والسباط ومركز بليبور وجميع مديرية كردفان ماعدا بعض أجزائهما ، وجميع مديرية جبال النوبا ماعدا بعض الأجزاء . والإدارة البريطانية استهدفت تمزيق وحدة الوطن السودانى ومنع امتزاج سكانه مع بعضهم بعضا . ونتيجة لهذا القانون شعرت المناطق الجنوبية بالوحشة نحو الجهات الشمالية بما لقنه المستعمر لأهل الجنوب من دروس فى التفرقة بينهم وبين إخوانهم من الشماليين .

٢ — ثم إن الاستعمار لم يكتف باستغلال قانون المناطق المقفلة فى بث روح الفزع والخوف فى نفوس الجنوبيين نحو إخوانهم فى الشمال وإنما عمد إلى استخدامه كذلك فى عزل أولئك الجنوبيين عن مظاهر الحضارة والرقى ، وحرمانهم من الأسباب التى تكفل لهم الانتقال من حياتهم

البدائية الساذجة إلى عالم المدنية والعمران ، وآتت هذه السياسة ثمارها فى خلق مجموعة هائلة من السكان بعيدة فى تفكيرها عند بنى جلدتها ، ويجد أقرانها من الشماليين سبيل التفاهم معها شاقا .

٣ — ولم تقل الأضرار التى أحدثها قانون المناطق المغلقة فى جنوب السودان عن الآثار السيئة التى خلفها وراءه فى الجهات العريقة فى عروبتها ؛ إذ نجم عن إثارة الروح القبلية وما صاحبها من مشاحنات قبلية قطع أسباب التفاهم بين سائر مناطق السودان الشاسعة، وجعلها وحدات منفصلة تفتقر إلى الترابط والتضامن .

٤ — ونتج عن هذه السياسة أن تمكن المستعمر من النجاح فى سياسة التفرقة بين أقاليم كردفان ودرافور من جهة فى الغرب ، وبين المناطق السهلة التى تحيط بنهر النيل فى أرض السودان ، وعاد التنافر والتناحر بين هذه الجهات ، على نحو ماكان عليه أيام دولة الفونج وسلطنة الفور، وظل أهل البلاد خاضعين للمستعمر .

(٦) السودان والحرب العظمى الأولى :

١ — كان غرض حكومة السودان التى تألفت قانونياً فى يناير سنة ١٨٩٩ تهدئة الأحوال ونشر لواء الأمن العام والعدالة ، وكانت توجس خيفة من كل الحركات الدينية ، التى لم تخمد نارها منذ القضاء على الثورة ، فقد قامت حركات ثورية محلية متعددة ، وفى جهات مختلفة من بلاد السودان . كان آخرها ثورة عبد القادر ودحبوبة سنة ١٩٠٨ ، وقد تمكنت الحكومة من القضاء عليها كما قضت على غيرها من الثورات التى سبقتها وتمتع السودان بعد ذلك بهدوء عام إلى أن قامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ .

(٢) بعد قيام الحرب سنة ١٩١٤ أخذت الحكومة فى السودان تهيء الرأى العام فيه لقبول دخول تركيا الحرب ضد انجلترا وذلك عن طريق الدعاية ، وقد آتت هذه الدعاية ثمارها عندما تقاطرت العرائض والتلغرافات والخطابات من العلماء والأعيان وزعماء العشائر على سراى الحاكم العام تعلن الولاء التام للحكومة القائمة ، وقد ساعد على نجاح هذه الدعاية ما عرفه أهل السودان عن الحاكم التركى والجندى التركى من القسوة والفظاظة والجلد بالسياط .

(٣) ولقد أسهم السودان بنصيب وافر فى سبيل الحرب ، وخاصة فى الحملة السورية التى قادها « أللنبي » وفى تموين الجيوش التى كانت ترابط فى مصر ، كما صدرت السودان عدداً كبيراً من الجمال والبقر والغنم إلى مصر لغذاء الجند فيها .

(٤) وعندما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ ، تكون وفد سودانى من السادة والعلماء وزعماء العشائر وسافر لإنجلترا فى سنة ١٩١٩ لتهنئة جلالة الملك شخصياً بالنصر . ودخلت المسألة السودانية بعد ذلك فى طور جديد حيث ارتبطت بالأمانى القومية المصرية .

(٥) بعد سقوط حكومة الخليفة عبد الله استقل السلطان على دينار بدارفور ،وكان هذا يرى منذ أن أخلصت البلاد له ألا تتدخل الحكومة فى أموره بل تعترف بسيطرته على البلاد ويقوم نظير ذلك برفع العلمين وبدفع جزية سنوية . فأذعنت الحكومة لسياسة الأمر الواقع . وكانت إدارة على دينار هى حكومة الفرد المطلقة ولكنه يقوم بجباية الضرائب ، وبإقامة العدل على الشريعة الإسلامية ، وعرف عنه التدين ، وبدأ يرسل محملا سنوياً للحجاز شأن ملوك المسلمين .

ولما قامت الحرب سنة ١٩١٤ أعلن السلطان على دينار ولاءه لخليفة المسلمين (سلطان تركيا) وحينما علمت حكومة السودان بأن السلطان ينوى الزحف شرقا إلى السودان سنة ١٩١٦ جهزت حملة من ثلاثة آلاف جندى أغلبيتها من الجيش المصرى بقيادة «كلى باشا» وسارت الحملة حتى أصبحت على بعد ١٢ ميلا من الفاشر عند قرية برنجية حيث دارت الموقعة بين الطرفين وانتهت بهزيمة السلطان فى يوم ٢٢ مايو سنة ١٩١٦ ، وهربه إلى منطقة جبل مرة الحصينة حيث قتل هناك يوم ٦ نوفمبر من نفس السنة . وبهذا تم انضمام دارفور نهائيا للسودان بعد ثمانية عشر عاما من فتح كتشنر ، وأصبح تاريخها جزءا من تاريخ السودان .

القسم الثالث

الوعى القومى فى السودان وأثره فى استقلال البلاد

(١) الجمعيات والأحزاب السياسية وأثرها فى الوعى القومى :

١ — ظل زمام المقاومة الشعبية والحركات السياسية فى الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ فى السودان فى أيدى الزعامة الروحية . وكان الجهاد الدينى هو الشعار الوحيد الذى يقيم له أهل الرأى وزنا . وقد كثرت المعارك والثورات المحلية فى هذه الفترة بين الوطنيين والحكومة ، وظل الأمر كذلك حتى وضعت الحرب العالمية أوزارها . وبانتهائها قامت شعوب الأرض وبخاصة المستعمرة منها تطالب بحقها فى الحرية .

٢ — وكان السودانيون منذ سنة ١٩١٤ قد قاموا بحركة جديدة هى أشبه بالحركات السياسية منها بالحركات الدينية يقودها فريق من موظفى الحكومة وطلبة كلية غوردون ، وهذه الحركة تمخضت فى صيف عام ١٩١٨ عن تأسيس نادى الخريجين من المدارس المصرية ، وبتأسيس هذا النادى بدأ الجيل الجديد فى السودان يشعر بضرورة العمل فى الميدان السياسى وتنحية الزعماء الدينيين بعد أن أصبح هؤلاء من صنائع الإنجليز. وأخذ شباب نادى الخريجين (فى أم درمان) ينادون بتحرير الفكر والعقل من هذه الأوهام التى لا تمت للدين بصلة ، كما أخذوا يتدخلون شيئاً فشيئاً فى الأمور السياسية ، وأخذ بعضهم يطالب جهرا بحقوق البلاد المهضومة .

٣ — وكانت ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر بمثابة شرارة الجهاد فى الجنوب ، ومن ثم بدأ أبناء النادى ينشرون أخبار الحركة الوطنية

بشىء من التمجيد والتقدير ، فلمعت أسماء قادتها الذين أخذوا يتعقبون خطوات الجهاد فى الشمال . ولما صدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فى مصر نشط الخريجون ودوت هتافاتهم علنية فى شوارع الخرطوم وأم درمان بحياة مصر ورجالات مصر . وفى نفس الوقت قامت حركة علنية أخرى يتزعمها السيد عبد الرحمن المهدى تدحض الحجة المصرية القائلة بوحدة مصر والسودان .

٤ — جمعية اللواء الأبيض : وفى الوقت ذاته برز رجال جمعية اللواء الأبيض ، وهى إحدى الجمعيات السرية التى كانت تعمل على بعث القوى الشعبية والوعى القومى فى السودان ، وقد تأسست فى الخرطوم سنة ١٩٢٤ برياسة اليوزباشى على عبد اللطيف (بعد إحالته على المعاش سنة ١٩٢٢ لوطنيته المتطرفة) ، وأخذت هذه الجمعية تعمل لإسماع العالم صوت الجنوب ، وتشد أزر المجاهدين المصريين ، وقد أيد هذه الجمعية عدد كبير من الموظفين والطلبة والعمال . فلما قام السيد عبد الرحمن يعارض فى الوحدة تصدت له جمعية اللواء الأبيض التى تنادى بالوحدة مما أدى إلى وقوع احتكاك بين رجال الجهتين ، وفى الوقت نفسه فزعت الحكومة (الإنجليز) من نشاط الجمعية . فأخذت تنكل بأعضائها فأدى ذلك إلى قيام مظاهرات تعبر عن استياء المواطنين لما نال أعضاء الجمعية من اضطهاد ، وتنادى بتحرير السودان . وكان أخطر هذه المظاهرات ما حدث فى ١٧ يونية سنة ١٩٢٤ بالخرطوم وما حدث فى ١٩ منه بأم درمان ، إذ عبر المواطنون فيهما عن آرائهم بصراحة ، ونددوا فى عنف بالسلطات الاستعمارية .

ولم يقتصر عمل الأعضاء على المظاهرات فحسب ، بل عمدوا إلى تدعيم جمعيتهم برغم ما نالها من أذى . فاتخذوا فى يوم ٢٣ يونية من نفس السنة علماً يعبر عن برنامجهم ويجمع شملهم ، وكان عبارة عن قطعة من قماش بيضاء عليها خريطة نهر النيل ، وفى جانبها الأيسر الهلال ، وفى الركن الآخر كلمة (إلى الأمام) ، وانضوى تحت لواء العلم الكثير من السودانيين ، فبلغ عدد أعضاء الجمعية نحو ألفين من خيرة المثقفين ، ومن المؤمنين بحرية وادى النيل . وما لبث أن امتد نشاط الجمعية إلى بور سودان حيث قاد على ملاسى فيها مظاهرة لإعلان السخط على الاستعمار . ولكن الإدارة البريطانية بطشت فى عنف بهذه الجمعية ، فقبضت على رئيسها وأعضائها البارزين ، وقدمتهم للمحاكمة فى شهر يوليو سنة ١٩٢٤ بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم . فحكمت على الرئيس على عبد اللطيف بالسجن ثلاث سنوات ، وعلى على ملاسى بالسجن ست سنوات ، وعلى الآخرين بالسجن مدداً تتراوح بين السنة والستة الأشهر ، وقصدت الحكومة بذلك تكميم أفواه الأحرار السودانيين ، ولكن النواة التى غرستها لم تمت ، وإنما تعهدها الشباب المثقف بالرعاية ، فحمل لواء الحرية بعد على عبد اللطيف ، طلبة المدرسة الحربية .

(٥) إضراب المدرسة الحربية بالخرطوم :

أسهم طلبة المدرسة الحربية بالخرطوم مع مواطنيهم فى إبداء شعورهم ضد التعسف الاستعمارى ، فخرجوا فى الشهر التالى لاعتقال على عبد اللطيف ، أى فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ بمظاهرة مسلحة ، وطافوا شوارع العاصمة بين إعجاب المواطنين . ولما انتهت المظاهرة عادوا إلى مدرستهم ، لكن السلطات البريطانية بادرت باعتقالهم فى المدرسة ثم نقلت سبعة

من تلامذة الصفوف الأحرار إلى سجن قسم الأشغال بخرطوم بحرى ، على حين ألقت بستة طلبة آخرين من زعماء المظاهرة فى سجون العاصمة ، على أن طلبة المدرسة تابعوا إضرابهم عن الدراسة عشرين يوما احتجاجا على تصرف الحكومة التى قدمتهم المحاكمة فى ١١ نوفمبر حيث قضت بالسجن ست سنوات على بعضهم وأفرج عن البعض الآخر بدون محاكمة . ولقد عومل هؤلاء الطلبة المسجونون معاملة سيئة للغاية ، فطبقت عليهم لائحة السجون فى المعاملة كالمجرمين لذلك اضطر الطلبة فى السجن إلى القيام بثورة ، انضم إليهم فيها سائر المعتقلين والمسجونين السياسيين ، وعلى الرغم من أن الرأى العام السودانى قد ثار احتجاجا على سوء معاملة هؤلاء الطلبة إلا أن هذا لم يجد نفعا .

وبعد أن سمع الطلبة بخبر قتل السردار (ستاك) ، وما صاحب هذا الحادث من حمل القوات المصرية على الانسحاب ، دب اليأس فى نفوسهم . وشكلت السلطات البريطانية محكمة غير عادية أعادت النظر فى قضية المسجونين جميعا ، فشددت أحكام الإدانة على الطلبة بتكليفهم مثلا نقل الأتربة والمواد البرازية ، كما أعيدت محاكمة أعضاء جمعية اللواء الأبيض ، فحكم على الرئيس على عبد اللطيف بسبع سنوات أخرى ، وشددت أيضا مدد العقوبة على سائر أعضاء الجمعية المسجونين .

(٦) جمعية الاتحاد السودانى : لما تعرضت جمعية اللواء الأبيض إلى الاضطهاد ، تكونت جمعية الاتحاد السودانى فى أغسطس سنة ١٩٢٤ لمتابعة الجهاد فى سبيل تحرير البلاد على نهج الجمعية السابقة ، وذلك بطبع المنشورات وتوزيعها على المواطنين لتبصرتهم بمساوىء الاستعمار البريطانى ، ولكن سرعان ما أدركت الحكومة خطورة هذه الجمعية

الجديدة فألقت القبض على رئيسها (أحمد أمين المصرى) ، وسائر الأعضاء البارزين ، ثم قدمتهم إلى المحاكمة ، فحكمت على الرئيس بالسجن سبع سنوات ، فى حين شرد باقى الأعضاء فى أقاصى البلاد ، وخمدت بذلك دعوة التحرير فى السودان ، وأصبحوا بين سجين ومعتقل ومنفى فى بلاد نائية .

٧ — ولما وصلت الأوامر فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ إلى القوات المصرية بالسودان بوجوب الانسحاب بعد حادث قتل السردار (١٩ نوفمبر) ، قرر القائمقام أحمد رفعت بك القائد العام للقوات المصرية بالسودان ، البقاء على الرغم من تهديد الإنجليز . فانتابت العامة (السودانيين) موجة من الوطنية المتحمسة وأخذوا يستعدون لملاقاة الموت بصدر رحب . كما قرر الضباط السودانيون فى الجيش المصرى بالسودان ، العودة إلى مصر مع إخوانهم المصريين ، ولذا أصبح هؤلاء الضباط حملة شعلة الكفاح السودانى فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ السودان السياسى ، والأمناء على رسالة زعيمهم الأول على عبد اللطيف . وفى يوم الخميس ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٤ تحركت الكتيبة الحادية عشرة السودانية يقودها حفنة من الشباب الضباط لا يزيدون عن العشرة ، ومعهم عربة صغيرة تحمل ستة مدافع رشاشة ، قاصدة ثكنات الجيش المصرى بخرطوم بحرى للانضمام إليهم ، ولكن الإنجليز تصدوا لهم عند كوبرى خرطوم بحرى ، حيث دارت رحى معركة عنيفة دامت ٢٤ ساعة استشهد فيها الضابط السودانى عبد الفضل الماظ معلنا إراقة دمه غذاء لشجرة الحرية فى السودان ، وتدعيما لفروعها الباسقة الممتدة فى سماء مصر ، وانتهت المعركة بالقبض على باقى الضباط السودانيين بعد أن فرغت منهم الذخيرة .

وتمادى الاستعمار فى بطشه ، فأعدم بعض الضباط وسجن أحدهم خمسة عشر عاما ، ونفى فريق آخر إلى بحر الغزال ليلقى حتفه هناك وخمدت بذلك حركة الجهاد السودانية ، بعد أن أطاح البريطانيون برءوس قادتها العسكريين ، على نحو ما فعلوه من قبل برءوسائها السياسيين أمثال على عبد اللطيف وعبيد الحاج أمين (ظل فى السجن ١٩ سنة وانتقل إلى جوار ربه وهو فى السجن ١٩٣٢) .

٨ — وعلى الرغم من أن حكومة السودان أخذت بعد ذلك توجه عناية خاصة لدوائر الخريجين وطبقات المتعلمين رغبة فى كسبهم إلى صفها ، غير أن شباب المجاهدين سرعان ماقاطعوا وسائل المستعمر وكرهوا أساليبه ، ومضوا فى كفاحهم حتى عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وانجلترا ، حيث قوبلت فى السودان بخيبة أمل بالغة لأنها لم تمس الوضع الإدارى فى السودان ، فانتشرت موجة التذمر فى أنحاء البلاد ، واتخذت أشكالا مختلفة منها أنها برزت فى سلسلة مقالات على صفحات « مجلة الفجر » فى دعوة الخريجين إلى عقد مؤتمر عام لاستئناف النضال الوطنى ، والدفاع عن حقوق الشعب ، ومحاربة الطائفية ، والفوارق القبلية . وفى نطاق هذه الحدود ظهرت الدعوة لتأسيس مؤتمر الخريجين العام ، وبعد عدة اجتماعات تم تكوين المؤتمر فى مدينة أم درمان فى اليوم الثانى من عيد الأضحى المبارك سنة ١٩٣٦ ، وأصبح للمؤتمر لجنة تنفيذية ، عددها خمسة عشر عضوا ، ووظيفتها الإشراف على تنفيذ المشروعات المختلفة . ويشرف المؤتمر على شبكة من اللجان المختلفة فى جميع أنحاء السودان ، ولكل لجنة وسائل شتى إلى رفع مستوى الحياة الاجتماعية ، ونشر التعليم . ولها نشاط

كبير فى الميدان السياسى ، وفى انتخابات المجالس البلدية . وليس مؤتمر الخريجين حزبا كما يتصور البعض وإنما هو بداية هيئة برلمانية كاملة ، يتكون من أعضاء ينتمون إلى جميع الهيئات والأحزاب السياسية . وظلت الهيئات المختلفة تشترك فى عضويته وتشترك فى الانتخابات السنوية حتى سنة ١٩٤٢ ، حيث قدمت اللجنة التنفيذية للحاكم العام مذكرة باسم الشعب تطالب فيها بإصدار تصريح مشترك من الحكومتين يمنح السودان حق تقرير مصيره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وكانت هذه المذكرة أول خطوة سياسية يتخذها المؤتمر ، وأول نشاط ملحوظ فى المعترك السياسى الفعلى ، ولقد لقيت هذه الخطوة ترحيباً من الشعب زادت من قوة إيمانه وثقته فى المؤتمر . وعلى الرغم من أن الحكومة لم توافق على هذه المذكرة ، إلا أنها (المذكرة) كانت بمثابة إعلان التعبئة العامة للجبهة الوطنية .

٩ — وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية فى منتصف عام ١٩٤٥ ، أخذ الخريجون يحددون موقفهم من معركة السلم بعد الحرب ، فانقسم أتباع المؤتمر إلى فريقين : أحدهما يؤيد الاتحاد مع مصر ، والآخر يؤيد الاستقلال التام يتزعمه أتباع حزب الأمة الحاليين . وهكذا نوقشت هذه الآراء فى نوادى الأحزاب ، وفى أروقة المؤتمر ، وعلى صفحات الجرائد المحلية ، وفجأة ظهرت الجماعات السياسية المختلفة ، وأقامت لنفسها هيئات وأحزاباً ، فكانت هذه الخطوة أول ظهور الأحزاب السياسية فى السودان ، وجاء تكوينها مظهراً لاختلاف الهيئات فى تكييف نوع الحكم فى المستقبل ، وكانت هذه الفترة مرحلة التفكك فى الآراء . وكان نتيجة لهذا الاختلاف أن ظهر فى السودان فى فترة وجيزة جداً أكثر

من عشرة أحزاب ، كل له مبادئه الخاصة . واستمر نشاط هذه الأحزاب حتى فشل بعضها واختفى ، ونجح البعض الآخر ومضى فى تأدية رسالته ، وتبلورت هذه الأحزاب فى جبهتين هما : الجبهة الاتحادية وتضم أحزاب الأشقاء ، والاتحاديين ، ووحدة وادى النيل ، والأحرار الاتحاديين . والجبهة الاستقلالية وتتكون من أحزاب الأمة والقوميين والجمهوريين ، وسنتكلم عن كل منها :

١ — أحزاب الجبهة الاتحادية .

(ا) حزب الأشقاء : ويمثل الأغلبية الساحقة التى تنادى بوحدة وادى النيل ، ولكن تفصيلات الوحدة عنده تختلف بين آن وآخر ، ويمتاز هذا الحزب بمقدرته على كسب الجماهير ، فأصبح له أنصار فى جميع أنحاء السودان .

(ب) حزب الاتحاديين : فى شهر اكتوبر سنة ١٩٤٨ وبعد أن أعلن حزب الأشقاء مبدأه القائل : « إنشاء حكومة سودانية ديمقراطية بالاتحاد مع مصر وتحت التاج المصرى » ، قام لفيف من الاتحاديين وخرجوا على الأشقاء لمعارضتهم هذا المبدأ لأنهم ينادون بنوع جديد من الحكم وهو : « قيام حكومة سودانية بالاتحاد مع مصر على نظام الدومنيوم » ، واجتمع عدد كبير منهم وأنشأوا حزباً جديدا باسم (الاتحاديين) .

(حـ) حزب وحدة وادى النيل : وتنحصر مبادىء هذا الحزب فى وحدة وادى النيل الكاملة ، حيث تنصهر الفوارق الجنسية فى بوتقة وحدة وادى النيل ، وأهم مبادئه هى : (دولة وادى النيل) ويكون للدولة برلمان واحد .

(د) حزب الأحرار الاتحاديين : أعضاؤه من الشباب المثقف الطموح ، وقد أعلنوا مبدأهم فى سنة ١٩٤٤ القائل بالمطالبة بوحدة الوادى التى تحفظ لهم حقوقهم الخاصة ، وأعلنوا شعارهم « قيام حكومة سودانية بالاتحاد مع مصر ، مع حفظ ذاتية السودان الخاصة » .

(١) أحزاب الجبهة الانفصالية:

(ا) حزب الأمة : فى عام ١٩٤٥ بعد أن أعلن مؤتمر الخريجين قراره المشهور بقيام حكومة اتحادية مع مصر ، انشق أتباع السيد عبد الرحمن المهدى ، وخرجوا من مؤتمر الخريجين ، وعقدوا اجتماعا عاما ، وأعلنوا بأنهم سيحاربون الوحدة والاتحاد ، وفى نفس الأسبوع ظهرت الصحف المحلية تحمل أخبار إنشاء حزب الأمة .

وأول من دعا إلى تأسيس حزب الأمة هو السيد عبد الرحمن المهدى والأميرالاى عبد الله خليل بك ، وكبار موظفى حكومة السودان . وفى ٢٨ من يناير سنة ١٩٤٥ أنشىء الحزب رسميا ، وقابلته الدوائر الحكومية بالترحاب والتشجيع ، فوافقت لأول مرة فى تاريخ السودان على تأسيسه ، فأصبح بين عشية وضحاها الحزب الوحيد المعترف به من قبل حكومة السودان .

ومبدأ الحزب هو « السودان للسودانيين » ، وغرضه السعى لاستقلال السودان بجميع حدوده الجغرافية ، مع المحافظة على الصلات الودية مع مصر وبريطانيا . وكسب الحزب الكثير من الأعوان ، وجاهر بالعداء لمصر والاتحاديين ، ولذلك احتضنت الحكومة البريطانية فى السودان أعضاء الحزب وفتحت أبوابها لأعوان الحزب فعينت منهم الوزراء ووكلاء الوزراء ، وخلقت لهم الجمعية التشريعية لينفردوا بعضويتها .

وأعضاء الحزب فى المدن قليلون بالنسبة للاتحاديين ، بل هم يكثرون فى بعض الأقاليم كنطقة غرب السودان ، ويعتمد حزب الأمة فى كسب أعوانه على التبعية الدينية ، وعلى نفوذ الإدارة القبلية .

(ب) أما الأحزاب الانفصالية الأخرى فهما : حزبا القوميين والجمهوريين وهما صغيران لم يكن لهما نشاط ملحوظ فى وقت من الأوقات . والحزب القومى يرمى إلى الابتعاد عن مصر وتنص مبادئه على : « تحديد فترة انتقال » يتسلم خلالها السودانيون زمام الحكم . والقوميون هم حزب المعتدلين الذين يحاولون أن يكسبوا جميع الجهات ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف والاحتفاظ بكيانهم حتى اختفوا من الميدان .

(٢) أثر النفوذ الدينى فى الوعى القومى :

(أولا) الميرغنية : كان زعماء البيوت الدينية فى السودان منصرفين إلى شئون طوائفهم ، يفقهونها فى الدين ، ويرسمون لها سبيل الهداية والرشاد ، مؤثرين الابتعاد عن الشئون السياسية ، أو الانغمار فى تياراتها ، واشتهر من هذه البيوت الدينية الميرغنية والمهدية اللتان أصبحتا قوتين هامتين فى البلاد فى الوقت الذى حدثت فيه الأزمة بين مؤتمر الخريجين والحكومة بعد تقديم المذكرة السالفة الذكر ، وقد بادرتا فى ذلك الوقت العصيب باحتضان أعضاء هذا المؤتمر ، ومساعدتهم على الخروج من أزمتهم ، وتشجيعهم على خدمة البلاد .

ولم يكن عجبا أن يمتزج النفوذ الدينى بنشاط الطبقة المثقفة فى سهولة ويسر وبانسجام تام ، ذلك لأن الأهداف السامية التى عمد المؤتمر إلى تحقيقها ، وإنقاذ البلاد من وطأة الاستعمار قربت بين جميع أبناء الوطن

السوداني على اختلاف مشاربهم ، دينية كانت أم دنيوية . والمعروف أن الطوائف الدينية في السودان لم تقصر نشاطها على مسائل الدين ، وإنما أسهمت في تنظيم حياتهم الاجتماعية ، وإعدادهم لما يكفل لهم عيشة راضية هنية ، وإلى غير ذلك من النواحي التي لا تختلف كثيرا عما استهدفته الطبقة المثقفة من أعضاء مؤتمر الخريجين ، وما نادوا به من آراء اجتماعية للأخذ بيد الشعب السوداني .

وتعتبر الميرغنية نموذجا لهذا النوع من النشاط الديني في السودان . ومؤسس هذه الطائفة هو « محمد عثمان الأميرغني » الذي بدأ دعوته في النوبة منذ ١٨٣٦ . واشتهر بالتقوى والورع ، واجتذب بذلك كثيرا من الأتباع . ثم انتقل بعد ذلك إلى كردفان حيث لقي هناك نجاحا عظيما ، فكثر عدد أتباعه هناك . واتجه بعد ذلك إلى سنار حيث اتخذ من القبائل المحيطة بها ميدانا لنشر تعاليمه . كما نجحت دعوته نجاحا عظيما في شرق السودان ، بسبب كثرة القبائل العربية هناك ، وبسبب زواج السيد محمد عثمان من هذه القبائل العربية . وهناك في شرق السودان أسس مدينة الختمية في منطقة كسلا ، وغدت المقر الرئيسي للحركة التي نسبت إليه ، والتي عرفت أيضا باسم الختمية نسبة إلى المدينة السالفة . وجاء نجاح هذه الحركة الدينية دليلا قاطعا على تأصل العروبة في السودان ، وما يلازمها من شدة التمسك بالإسلام بين الأهالي .

والسيد على الميرغني هو الزعيم الحالي لطائفة الختمية ، وقد عرف هذا الزعيم الروحي الكبير بتأييده لقادة السياسة منذ ١٩٣٠ ، ثم إن طائفته الختمية عضدت الطبقة المثقفة ، ولا سيما عندما شردت السلطات البريطانية في السودان بعض أعضاء مؤتمر الخريجين ١٩٤٢ ، إذ وقفت إلى جانب حزب الأشقاء الذي صارت إليه مقاليد السلطة العليا في هذا

المؤتمر ، وآزرته فى جهاده لتحرير السودان عن طريق التعاون مع مصر .

ولما ظهر موقف الميرغنية واضحا ، عمدت الحكومة إلى خلق قوى تناوىء الميرغنية ، وتهد من كيانها . ولكن هذه المحاولات الاستعمارية تحطمت أمام قوة أوتاد تلك الطائفة الدينية ، وصلابة عود زعيمها ومرشدها الروحى . ومن ثم دأبت الختمية على مناصرة الأحزاب الاتحادية ، وعملت جاهدة فى نفس الوقت على تدعيم جذور الإسلام والعروبة فى السودان .

(ثانيا) المهدية : وفى الوقت الذى شجعت فيه الميرغنية رجال السياسة فى السودان ، بدأت المهدية تستيقظ من سباتها ، لتؤدى رسالتها فى خدمة الحركة السياسية والوعى القومى بالبلاد . وكان نهوض المهدية حدثا هاما فى تاريخ السودان ، وعنوانا على الروح الفتية الكامنة عند أهل البلاد . ويرجع الفضل فى يقظة المهدية إلى السيد عبد الرحمن الذى جاهد جهاداً شاقا فى سبيل متابعة الرسالة التى تلقاها من والده المهدى العظيم . وظل هذا الزعيم مغمورا بسبب قسوة الرقابة الاستعمارية حتى قامت الحرب العظمى الاولى ١٩١٤ وأعلنت تركيا الجهاد الدينى ضد إنجلترا وحاولت إنجلترا أن تتصل بقادة العالم الإسلامى والعربى ، تذكرهم بمآسى الأتراك أيام سيادتهم القديمة عليهم ، وفى غمرة هذه السياسة البريطانية الجديدة ، اتصل حاكم السودان بالسيد عبد الرحمن المهدى ، وشرح له وجهة نظر بلاده : وبذلك اضطرت الإدارة البريطانية فى السودان إلى الاعتراف بوجود المهدية ممثلة فى شخص السيد عبد الرحمن ، ثم سمحت له بعد ذلك بالذهاب إلى أرض الجزيرة حيث يكثر أتباعه وينتشر نفوذه ، إمعانا منها فى كسبه إلى جانبها ، ولكن السيد عبد الرحمن المهدى استغل

هذا الموقف فى بعث الحياة من جديد بين أتباعه ، وتجديد روح الأمل فى نفوسهم ، فأخذ يوجههم إلى التعاليم الدينية الصحيحة ، ويذكرهم بمجدهم القديم . ثم إن السيد عبد الرحمن عمد إلى تدعيم مصدر ثروته الزراعية ، التى كان قد انتزعها منه الاستعمار حتى غدت له مكانة كبرى فى الميدان الاقتصادى فى البلاد . وكرس هذا الزعيم الدينى ما ناله من رخاء مادى فى خدمة قضية السودان . وظهر نشاط السيد عبد الرحمن جليا خلال سنة ١٩٤٢ ، حيث شمل بعطفه وتشجيعه قادة الأحزاب السياسية ، وأخذ يوجههم إلى ما فيه الصالح العام ، وخص السيد عبد الرحمن بتأييده حزب الأمة ، الذى نشأ فى فبراير سنة ١٩٤٥ ، والذى نادى باستقلال السودان مع احتفاظه بالصداقة مع مصر وانجلترا . ومنذ ذلك الوقت بدأت المهدية تتبوأ مكانتها القديمة فى تسيير دفة الأحداث فى السودان ، وتشارك فى توجيه قادة البلاد إلى ما يحقق المطالب القومية .

وبذلك امتزجت البيوت الدينية مع قادة الحرية فى السودان لتحقيق أهداف البلاد ، الخاصة بالاستقلال والتخلص من ربقة الاستعمار البريطانى . ولم ينفصم عرى هذا التعاون برغم الدسائس الاستعمارية التى اتخذت من اختلاف أساليب الأحزاب السياسية وبرامجها وسيلة لنشر الأراجيف والترهات حول البيوت الدينية تارة ، وحول علاقة قادة حركة التحرير بهذه البيوت تارة أخرى .

(٣) المحدرات الدستورية :

(ا) المجلس الاستشارى : عمدت الإدارة الانجليزية بالسودان إلى القضاء على هذا التكتل الشعبى ، وبث الفرقة فى صفوف قادته ، ورأت

أن ذلك لا يتم إلا بخلق جبهة تناوئ الطبقة المثقفة في البلاد ، التي أصبح لها خطرها منذ أن ضمهم « مؤتمر الخريجين » ، فاتجهت الأساليب الاستعمارية إلى إحياء سلطان مشايخ القبائل السودانية وخلق هيئة تضمهم أطلقوا عليها اسم « المجلس الاستشاري لشمال السودان » للحد من شوكة مؤتمر الخريجين وهو يتكون من مشايخ قبائل السودان الشمالي مع كبار الموظفين السودانيين ، وحرم الجنوبيون من الاشتراك فيه . وهذا المجلس تشكل بطريقة جعلته أداة في يد الإدارة ، لذلك وقف منه أعضاء مؤتمر الخريجين موقف الأعداء وقدموا في أغسطس سنة ١٩٤٥ مذكرة طالبوا فيها : بقيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر وتحالف مع انجلترا ، وتعيين لجنة نصفها من السودانيين ونصفها الآخر من المصريين والانجليز تكون مهمتها وضع مشروع تولي السودانيين مقاليد الحكم في البلاد في أقصر وقت ممكن وإطلاق الحريات العامة .

(ب) الجمعية التشريعية : اضطرت الإدارة البريطانية إلى إعداد مخدر آخر تعرقل به ظهور الوعي القومي في السودان ، وتفتقت حيلة الإدارة عن تشكيل « الجمعية التشريعية » و « المجلس التنفيذي » لتحقيق مآربها الذاتية . ورغم أن هذا النظام النيابي المقترح لا يفسح المجال لتمثيل السودانيين تمثيلا صحيحاً ، ولا يسمح بإشراك السودانيين اشتراكاً فعليـــا في حكم أنفسهم ، لأن رأي الجمعية استشاري محض ، وأنه لا يجوز لأعضائها التقدم مباشرة للجمعية بمشروعات القوانين ، والحاكم العام له الحق المطلق في التصديق أو رفض أي مشروع ، على الرغم من ذلك كله ، وعلى الرغم من معارضة مصر لهذا النظام فقد

صدر فى ١٩ يونيو سنة ١٩٤٨ قانون الجمعية والمجلس التنفيذى ، وأطلقت الإدارة الإنجليزية بذلك لنفسها العنان فى السودان .

(٤) مرحلة الانتقال :

(ا) مشروع الحكم الذاتى

لما أعلنت مصر من جانبها إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، أدرك الرأى العام السودانى أن بريطانيا وحدها هى التى تحكم البلاد ، فأخذ ينادى بإنهاء مهزلة الحكم الثنائى ، واشتد الجهاد والنشاط ضد البريطانيين ، لذلك رأت إنجلترا ، جريا على سياسة التسويف التى تحسنها ، تأليف لجنة فى مارس سنة ١٩٥١ لدراسة الموقف السياسى فى السودان ، ووضع تقرير عن الخطوات التى يمكن أن تبيح للبلاد الحصول على الحكم الذاتى . ولكن نظرا لأن تشكيل اللجنة كان خاطئا منذ البداية ، انسحب الأعضاء السودانيون من اللجنة بعد أن تبين لهم زيف المقترحات المقدمة لهم من من الجانب الإنجليزى . ومع ذلك ظل الرئيس البريطانى للجنة ومستشاره يعملان على دراسة الموقف ، حتى استقر الرأى على منح السودان حكما ذاتيا ، وفق القواعد التى ارتضتها إنجلترا ، دون أى اعتبار لمقترحات السودانيين . وقدم المشروع فى ٢ إبريل سنة ١٩٥٢ إلى الجمعية التشريعية وأرسلت صورة منها إلى مصر لإقراره ، وكانت انجلترا تتعجل إصدار هذا القانون واعتماده من دولتى الحكم الثنائى ، حتى تكسب تدعيم أقدامها فى السودان ، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد قامت ثورة جيش مصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فقلبت الأوضاع رأسا على عقب ، فرفضت المذكرة السابقة ووضعت أخرى أرسلتها للحكومة البريطانية فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، بينت فيها الوسائل الجديدة التى تراها كفيلة بتمكين

السودانيين من سيادة بلادهم وتهيئة الفرص الصالحة للحكم الذاتي، وعمدت مصر بعد ذلك إلى إشراك السودانيين أنفسهم في رسم مستقبل بلادهم .
ونجحت مصر في عقد اتفاق بين جميع الأحزاب السودانية في ١٠ يناير سنة ١٩٥٣ وسجلته في وثيقة خطيرة، غدت أساس مفاوضاتها مع إنجلترا وأكدت هذه الوثيقة الضمانات التي في المذكرة المصرية إلى الحكومة البريطانية بشأن مستقبل السودان ، ثم اشتملت على ضمانات أخرى منها :

١ — ألا يكون للحاكم العام سلطات خاصة أو استثنائية بخصوص جنوب السودان .

٢ — تشكيل لجنة الحاكم العام لمعاونته في فترة الانتقال من خمسة أعضاء (٢ سوداني + واحد مصر + واحد انجليزى + واحد هندى) والأخير ينوب عن الحاكم العام في حالة غيابه .

٣ — تكون الانتخابات مباشرة في كل أنحاء السودان .

٤ — تشكيل لجنة للسودنة لتهيئة الجو الحر المحايد (٣ سودانى + واحد مصرى + واحد بريطانى) .

٥ — تجلو جيوش الاحتلال قبل إجراء انتخابات الجمعية التأسيسية للسودان بسنة واحدة على الأقل

(حـ) اتفاقية السودان :

وفي ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ أبرمت اتفاقية السودان بين مصر وبريطانيا التي جاءت صفحة جديدة في جهاد مصر لتحرير السودان . واشتملت هذه الاتفاقية على ١٥ مادة كلها تهدف إلى تمكين السودانيين من سيادة بلادهم ، وإبعاد البريطانيين عن المراكز التي يمكن أن تعرقل التطور السوداني إذ نصت على منح السودانيين ، جميع الحريات والسلطة المطلقة في إدارة بلادهم خلال فترة الانتقال، وشل سلطات الحاكم العام التي يمكن أن تسيء إلى الوحدة السودانية .

ء — الحكم الذاتى وثمار الاتفاقية:

(١) بدأت البلاد السودانية تنعم بثمرة الاتفاقية عندما تشكلت اللجنة الخاصة بالإشراف على الانتخابات لتكوين أول برلمان سودانى فى عهد الحرية. وعقدت اللجنة أولى جلساتها فى إبريل سنة ١٩٥٣، وكانت الشروط التى وضعتها للمرشحين لعضوية مجلس النواب والشيوخ، هى نفس الشروط التى جاءت فى دستور الحكم الذاتى للسودان.

(٢) أجريت الانتخابات فى السودان حيث استغرقت خمسة أسابيع (من نوفمبر إلى بداية ديسمبر سنة ١٩٥٣، وأسفرت عن فوز الحزب الوطنى الاتحادى بالأغلبية فى مجلس النواب (٥١ الوطنى، ٢٢ أمة، ٣ جمهورى، ١٢ مستقلين، ٩ جنوبيين) وكان عدد أعضاء المجلس ٩٧ وعدد أعضاء مجلس الشيوخ خمسين فاز الحزب الوطنى فيها بالأغلبية (٢٢ عضواً).

(٣) اجتمع البرلمان السودانى الأول فى أول يناير سنة ١٩٥٤، وفى جلسة ٦ منه انتخب السيد اسماعيل الأزهرى رئيساً للوزارة فكان أول رئيس لأول مجلس وزراء سودانى صميم. وبلغ عدد أعضاء وزارته (١٢) من بينهم ثلاثة جنوبيون وبذلك جنى السودان أولى ثمار الاتفاقية، وهى تربع أبنائه على كراسى الحكم والإدارة، والتمتع لأول مرة فى تاريخهم بحكم أنفسهم بأنفسهم.

(٤) وظهرت الثمرة الثانية للاتفاقية عندما تشكلت لجنة السودنة، واستطاعت هذه اللجنـــة فى الفترة ما بين شهرى أغسطس ونوفمبر سنة ١٩٥٤، سودنة جميع وظائف الإدارة والجيش والبوليس. فبلغ عدد من سودنت وظائفهم من البريطانيين (١٠٩٦) وظيفة. ومن المصريين

(١٥٠) وظيفة وتعتبر النتائج التى وصلت إليها لجنة السودنة أعظم حدث فى تاريخ السودان وأشد لطمة وجهت إلى الاستعمار البريطانى فى العصر الحديث، فارتاح السودانيون من هذا الكابوس الذى جثم على صدورهم أكثر من خمسين سنة ، وحرمهم من خيرات بلادهم .

(هـ) الجنوب فى فترة الانتقال :

١ — عملت الإدارة البريطانية فى السودان على فصل الجنوب عن السودان بطريقين أحدهما إدارى والآخر اجتماعى ، وذلك إمعاناً فى خلق مشكلة خطيرة يصعب حلها بمرور الزمن . وبدأت التفرقة الإدارية فى حكم البلاد منذسنة ١٩٢١ عندما قررت حكومةالسودان جعل الإدارة فى الأقاليم أهلية ، ولكنها أعلنت فى نفس الوقت أن هذا النظام يستثنى منه المديريات الجنوبية (أعالى النيل الاستوائية وبحر الغزال) لتأخر سكانها . وتكشفت نوايا الإدارة البريطانية تماماسنة ١٩٢٧ عندماأعلنت عن وضع سياسة للجنوب تهدف إلى خلق وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة للمديريات الجنوبية ، أساسها الجنس الزنجى ، المختلف عن الجنس العربى فى الشمال .

٢ — عمدت الإدارة فى الجنوب إلى نشر المسيحية فى هذه الجهات ليتم فصلها تماماً عن الإسلام فى الشمال وخلق عقبة اجتماعية كؤود . كما أن الإرساليات التى اضطلعت بمهمة التبشير كانت مذاهب متباينة ، حتى يخرج الأهالى بعقائد تبعدهم عن الوحدة أو التفاهم . ولم يقتصر عمل الإرساليات على الناحية الدينية الصحيحة ، وإنما مزجت تعاليمها بثقافة تبعث على التفرقة بين أهل الجنوب وإخوانهم المسلمين فى الشمال ،

فأفهمت أهل الجنوب بأن الشماليين هم الذين كانوا يتاجرون فى الجنوبيين كرقيق .

٣ — كذلك دأبت الإدارة البريطانية على اعتبار الجنود مناطق مغلقة ، ووحدة قائمة بذاتها لاصلة لها بالشمال ، وظل الأمر كذلك حتى عقدت اتفاقية السودان المذكورة ، وبمقتضاها صار السودان رسمياً لأول مرة منذ انفردت به الإدارة البريطانية — وحدة يكمل جنوبها شمالها ، ويتوج هذه الوحدة قيام البرلمان السودانى الأول من أعضاء جنوبيين وشماليين . ولا ولاية للحاكم العام على أهل الجنوب فى تلك الهيئة بأى صورة من الصور .

٤ — لكن ظهرت فى خلال فترة الانتقال الآثار السيئة لسياسة التفرقة التى بثها الاستعمار بين أهل الشمال والجنوب ، وضرورة بذل الجهود لوضع خطة تؤدى إلى تبادل الثقة بين الفريقين ، فالمناقشات التى دارت فى الاجتماعات الأولى لمجلس النواب السودانى ، كشفت عن افتقار الجنوبيين إلى مزيد من الثقة عند أهل الشمال ، وحاجتهم إلى أمثلة عملية تقوى إيمانهم بالوحدة الجديدة . على أن إتمام الوحدة بين أهل السودان لا بد أن تأتى عن طريق العمل الصادق لا القول فقط ، وتفانى الشماليين كذلك فى إظهار محبتهم لأهل الجنوب .

٥ — لذلك كانت مسألة الجنوب أهم مشاكل الحكم الذاتى أثناء فترة الانتقال ، لأنها مسألة نفسية عميقة الجذور تتطلب من السودانيين جميعاً الهدوء وضبط الأعصاب . ولكن سرعان ما وقعت حوادث مؤسفة فى جنوب السودان ، وجهت أنظار الجميع إلى عمق المفاسد التى تركها العهد البائد فى نفوس نفر من المواطنين . راح ضحية ثورة الجنوب

حوالى ٤٠٠ نفس من الشماليين فى الفترة ، بين ١٨ — ٢٧ أغسطس ١٩٥٥ غير أن الأمل عظيم فى تغلب السودانيين على هذه العقبة ، والتخلص من مساوئها الاجتماعية ، إذا أقبلوا على تفهم وضعها بروح علمية خالصة بعيدة عن العواطف والأهواء ، وعلى قادة السودان عند دراستهم لمطالب الجنوب أن يتمكنوا من إجابتها على ضوء ما يحفظ وحدة الوطن السوادنى الكبير ، وإن المستقبل كفيل بإظهار قوة الخلق السودانى ، وقدرة السودانيين على الخروج من هذه الأزمات — منصهرين ممتزجين .

استقلال السودان

(١) تقرير المصير وإعلان الاستقلال ومظاهره :

ا — انتهاء فترة الانتقال : سارت مراحل تنفيذ اتفاقية السودان سيرا حسنا وبسرعة فائقة فى نفس الوقت ؛ إذ جاء انتهاء لجنة السودنة من مهمتها فى أقل من عام واحد دليلا واضحا على وجود العناصر السودانية الصالحة لتولى مرافق البلاد . وكان لسهر مصر على تنفيذ اتفاقية السودان أثرها فعلا فى جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد دون تأخير ومتاعب . وسرعان ما تفاوضت مصر مع بريطانيا على تحديد يوم للجلاء إجابة لطلب البرلمان السودانى ، وتحدد يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٥٥ آخر يوم لمغادرة قواتها أرض السودان . وحققت مصر بذلك وعدها فى تحرير السودان الشقيق الذى نال هذه الحرية كما قال السيد اسماعيل الأزهرى « لا بسيف ولا بدماء ، بل بصورة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ »

ب — الاستفتاء الشعبى : وفى يوم ٨ يونيو سنة ١٩٥٥ بدأت المفاوضات المصرية الإنجليزية بشأن تشكيل اللجنة الدولية التى تشرف على تقرير

المصير بالسودان ، وفوجئت أن إنجلترا عندما قررت مصر أن تكون اللجنة المذكورة مكونة من اثنين من الجبهة الغربية ؛ واثنين من الجبهة الشرقية والرياسة لعضو من آسيا ، فلم توافق إنجلترا ، فقررت مصر عرض المشكلة على البرلمان السوداني ، الذى قرر وجهة نظر مصر فبرهنت مصر كذلك فى هذا على صدق نواياها نحو السودان وفى جلسة ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٥ أقر مجلس النواب الاقتراح الذى ينادى بأن يكون الاستفتاء الشعبي المباشر هو الوسيلة لتقرير المصير فى السودان حتى يتجنب السودانيون « الكثير من المزالق والمنافسات الحزبية والأخطار التى أشار إليها بيان السيد على الميرغنى » وبادرت الحكومة المصرية بإعلان موافقتها على قرار البرلمان السودانى .

حـ — لكن خوف السودانيين من ألاعيب المستعمر ، وخوفهم من التنافس الحزبى جعلهم يفكرون فى طريقة أخرى تجنب البلاد ويلات الانقسامات ، وفى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٥ بعد أن جلت القوات الأجنبية ، أجاز البرلمان أربعة مقترحات حددت مطالب البلاد وأهدافها وهذه المقترحات هى : إجابة مطالب الجنوبيين ،وإعلان استقلال البلاد وتشكيل لجنة السيادة ، وتكوين جمعية تأسيسية . أما بخصوص مطالب الجنوبيين فقد قرر البرلمان فى نفس الجلسة موافقته عليها وهى عمل حكومة فدراليه للمديريات الجنوبية الثلاث .

أما بخصوص استقلال السودان فقد أجمع البرلمان على تقديم هذا الطلب إلى الحاكم العام وجاء فيه : « نحن أعضاء مجلس النواب فى البرلمان مجتمعا ، نعلن باسم شعب السودان ، أن السودان قد أصبح دولة مستقلة كاملة السيادة ، ونرجو من معاليكم أن تطلبوا من دولتى الحكم

الثانى الاعتراف بهذا الإعلان فورا » ولا ستكمال مظاهر استقلال السودان قرر البرلمان أن ينتخب لجنة من خمسة سودانيين لتمارس سلطات رأس الدولة من بينهم واحد جنوبى . كذلك قرر البرلمان فى جلسته الحافلة الاقتراح الذى طالب بقيام « جمعية تأسيسية منتخبة لوضع وإقرار الدستور النهائى للسودان ، وقانون الانتخابات للبرلمان السودانى المقبل .

(٢) الدستور المؤقت والعلم :

ا — إن الجمعية التأسيسية التى اقترح البرلمان إقامتها لن تمارس أعمالها إلا بعد استكمال سيادة البلاد والاعتراف باستقلالها . ولا يمكن أن تحكم البلاد فى هذه الفترة السابقة لتكوين الجمعية التأسيسية دون دستور واضح المعالم لذلك رؤى أن أقصر الطرق لحل هذا الموضوع هو تعديل قانون الحكم الذاتى ، بما يتلاءم مع الوضع الجديد للبلاد ، ويتمشى مع الأوضاع الدستورية الحديثة . ووافق البرلمان على الدستور المؤقت فى جلسة يوم السبت ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٥ .وقد نص فى هذا الدستور على أن يكون السودان جمهورية ديمقراطية ذات سيادة ، وأن الأراضى السودانية تشمل جميع الأقاليم التى كان يضمها السودان المصرى الانجليزى ،كذلك شرح الفصل الثالث فيه مجلس السيادة واختصاصاته .

ب — العلم السودانى : وفى نفس الجلسة السابقة . أعلن مولد العلم السودانى « ورأى المجلس أن يتكون العلم من الالوان الآتية : الأزرق (يرمز للنيل)، الأصفر (يرمز للصحراء)، الأخضر (يرمز للزراعة) .

وبذلك اجتاز السودان كل المراحل التمهيدية التى تحقق له استكمال سيادته ، واتسمت خطواته فى هذا الصدد بالسرعة الفائقة والاتزان فى

نفس الوقت ، مما يدل على ثقة السودانيين بأنفسهم ، وقدرتهم على رفع بلادهم إلى المستوى الجدير بها ، بين مجموعة الأمم الناهضة .

(٣) مولد الجمهورية السودانية :

كان يوم الأحد أول يناير سنة ١٩٥٦ اليوم الرسمي لمولد الجمهورية السودانية ، وفى هذا اليوم أقسم أعضاء مجلس السيادة ، أمام البرلمان على احترام دستور البلاد وتأدية واجباتهم على الوجه الأكمل . وبهذا القسم انتهت مهام وظيفة الحاكم العام رسميا ، وأصبح السودان منذ ذلك اليوم جمهورية مستقلة ذات أعباء وواجبات فى مجموعة الأمم الكبرى وكانت مصر أول دولة اعترفت باستقلال السودان الشقيق وسيادته ، وعبرت مصر عن هذا الفرح الذى عم طبقات الشعب فى الإذاعة وفى الصحف . وهكذا جاء ميلاد السودان وسط أفراح شاملة عمت وادى النيل شماله وجنوبه ، وأتاح فرصة طيبة لتأكيد أخوة الشعبين السودانى والمصرى .

(٤) الجمهورية السودانية فى المحافل الدولية :

ا — كان أول منظمة دولية هرع إليها السودان دون تردد هى جامعة الدول العربية ، التى تضطلع بمهمة تثبيت العلاقات الطبيعية وتدعيم الروابط العديدة بين الأقطار العربية على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها . وفى يوم ١٩ يناير سنة ١٩٥٦ وافق مجلس جامعة الدول العربية على انضمام السودان ، بعد أن رحب الأعضاء جميعاً ترحيبا حارا بهذا القطر الفتى .

ب — ولا يقتصر دور السودان فى ميدان العروبة على تدعيم جامعة الدول العربية فحسب وإنما عليه كذلك بذل جهد كبير فى سبيل تقليم أظافر مخالب الاستعمار الأوربى ، التى تبغى تطويق العالم العربى بخناق

جنوبى أشبه بحلف تركيا — بغداد فى الشمال . ونقصد بهذا خلق حزام إفريقى يحقق لانجلترا غرضين هامين: أحدهما عزل مستعمراتهم فى إفريقية عن تيار الحضارة العربية المتدفق إلى قلب هذه القارة عن طريق وادى النيل، والآخر إنشاء نقطة ارتكاز فى إفريقية تصلح لأن تكون قاعدة عسكرية لجيوشهم فى أية حرب عالمية مقبلة . وقد باركت أمريكا هذه السياسة ، وهى تعمل جاهدة لإدخال أكبر عدد من بلاد إفريقية ضمن هذا الحزام الاستعمارى ، وأخطر الحيل الاستعمارية فى ذلك هى التلويح بالمساعدات المادية أو إبرام الاتفاقات الاقتصادية التى لن تكون إلا كالسم فى العسل التى لن يقع فريسة لها إلا كل قصير النظر ، ضيق الأفق . ولن ينجو السودان من مخالب هذا الأخطبوط المخيف إلا بتمسكه بعروبته ، وقضائه على سموم الأراجيف التى يبثها المستعمر تحت ستار الحزام الإفريقى . ذلك أن السودانيين قادرون بعروبتهم على إنقاذ جيرانهم من الخناق الاستعمارى ، الذى يحاول إزهاق أرواحهم. وبالتالى يستطيعون تأمين حدودهم وتدعيم استقلالهم . ولذا فإن رسالة السودان فى إفريقية رهن بإيمانه العميق بعروبته ، وقدرته على نشر تقاليدها ، وحضارتها بين الأمم المجاورة له فى جوف هذه القارة . ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى إفريقية ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا

حـ — هذا ونتيجة لحصول السودان على استقلاله التام تبادل التمثيل السياسى مع دول العالم المستقلة ، فأصبحت له سفارات فى كثير من الدول كما أصبح به سفارات ومفوضيات للدول الأجنبية ترعى مصالح رعاياها فى السودان .

الفصل الثامن

علاقات وروابط مصر بالسودان

سبق أن تكلمنا فى الفصل الأول عن السودان فى عهد الفراعنة من الناحية التاريخية بوجه خاص ، واندمج تاريخ السودان بتاريخ مصر فى العصر الحديث كما هو ظاهر ابتداء من الفصل الرابع حتى نهاية الفصل السابع . ونريد أن نعالج هنا فى هذا الفصل بعض نواحى العلاقات والروابط بين البلدين ، والتى لم يتيسر علاجها فى الفصول السابقة ، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلى :

أولا : الناحية الثقافية :

١ — الصلات الثقافية بين مصر والسودان لا ترجع إلى مؤثرات حديثة . بل تعود إلى صلات متناهية فى القدم ، وما يقف أمرها عند تلك الأقاليم القريبة من مصر ، بل يمتد إلى أبعد جهات الوادى فى الجنوب . ودراسة هذا الاتصال الثقافى فى مختلف عهود التاريخ يبين بوضوح أن مصر كانت دائماً المصدر الذى انبعثت عنه كل تلك التيارات الثقافية فى أشكالها المختلفة ، وأنها كانت عامل التحضير الذى أعطى لحضارات الوادى وثقافاته مقوماتها المادية والروحية .

٢ — فشمال السودان قديما ارتبط تاريخه وحضارته ارتباطا تاماً بتاريخ مصر وحضارتها القديمة ، وكانت النوبة ، وما يتصل بها من الأقاليم السودانية جزءاً لا يكاد ينفصل عن مصر طوال التاريخ — بل وفيما

قبل التاريخ — فالوثائق القديمة تشير دائماً إلى كثرة القوافل التجارية التى كانت تسير بين مصر والسودان، وهى قوافل وصلت جنوبا — أيام الدولة الوسطى — حتى (كرمة)، وأدت العلاقات فى عهد الدولة الحديثة إلى « ... تمصير تام المنطقة التى تضم الآن إلى مديرتى حلفا ودنقلة »، وذلك كما حكاه المؤرخ (أديسون) .

٣ — ولسنا بحاجة إلى أن ندخل فى تفاصيل أثر مصر فى (تحضير) الأقسام الشمالية للسودان، فهذا أمر أسهب فيه المؤرخون وكشفت عنه الحفائر والبحوث، وإنما يكفى أن نشير أن مصر فى صلاتها بهذه المناطق كانت ترمى — ضمن ماترمى إليه — إلى أن تؤدى رسالة ثقافية، استطاعت فى عهد الدولة الوسطى أن تخلق حضارة مصرية معدلة بطابع النوبة المحلى، وأن تصبغ أثيوبيا بالصبغة الحضارية المصرية . وقد أصبح ملوكها فى عهد ازدهار دولتهم فراعنة لمصر، فاستطاعوا أن يفيدوا من رجال الفن والبناء فائدة كبيرة، ولهذا تميز عهدهم بتدفق المؤثرات الثقافية واتجاه التيارات الحضارية من الشمال إلى الجنوب . وليس أدل على هذا الارتباط القوى بين الحضارتين من أنه بعد أن قطعت الصلة بين مصر وأثيوبيا . أصيب الجنوب بانحلال تدريجى فى نواحى حضارته التى كان يغذيها ويقويها حضارة مصر وثقافتها .

٤ — وقد عاد الأثر الشمالى فظهرت قوته أيام البطالمة والرومان، وبدأ الطابع الخاص بثقافتهم يبرز فى الفترة (المروية) التى تبعت الفترة (الأثيوبية) إلى دخول المسيحية فى القرن السادس للميلاد . والملاحظ أنه عندما حاول سكان هذا الإقليم اختراع كتابة خاصة بهم — بعد أن ضعفت اللغة المصرية والكتابة المصرية — لم يستطيعوا أن يتخلصوا من

الأثر الشمالى ، أو يتحللوا تماما من الطابع المصرى بل اضطروا أن يقتبسوا من الكتابة الهيروغليفية ، وأن يأخذوا منها كثيرا .

٥ — هذا عن شمال السودان ، فما أثر الحضارة المصرية وثقافة أهل الشمال فى حضارة أعالى النيل وثقافة أهل الجنوب؟ فقد ذكر العالم (سليجمان): « . . إن الأفكار المصرية والوسائل الفنية المصرية قد وصلت إلى إفريقية الاستوائية وإفريقية الغربية . . . وإنه من الصعب علينا أن نشك فى أن عددا من مظاهر الحضارة المشتركة بين مصر القديمة، والمنطقة الشرقية من إفريقية قد ظهر فى مصر ، ثم انتقل إلى القبائل شبه الزنجية التى تسكن النيل ، وإلى القبائل الزنجية التى تعيش فى الكنغو » . ولم ينفرد الأستاذ (سليجمان) بهذه الحقائق، بل هناك علماء آخرون لا يقلون عنه تحمساً لهذا الرأى . فالسير هارى جونسون ذكر هذا بقوله : « لقد كانت تجارة مصر منذ ٤٠٠٠ سنة ق . م تتوغل بطريق النوبة إما إلى كردفان ودارفود وبورنو وتبستى والنيجر ، وإما إلى بحر الغزال وأقاليم النيل المرتفعة حيث يعيش الأقزام . . . ولقد ظهر المخاطرون المصريون فى أراضى الزنوج المتوحشين قرب منابع النيل . . . وقد أتوا معهم من مصر بالحيوانات المستأنسة والنباتات المزروعة ، بالإضافة إلى صناعة المعادن » .

فلا جدال إذاً فى أثر مصر فى تحضير شعوب وادى النيل منذ أقدم العصور ، ولا شك فى أن أسس الثقافة المنتشرة فى أرجاء الوادى إنما هى مستمدة أصلا من هذا المصدر الشمالى .

٦ — وقد كان لمصر الفضل فى دخول المسيحية إلى الحبشة والسودان . أما الحبشة فما يعنينا أمرها فى هذا البحث ، أما السودان فقد دخلته المسيحية من مصر كما سبق أن ذكرنا ذلك — فى حوالى منتصف القرن

السادس الميلادى ، وتم لهم تنصير بلاد النوبة كلها فى حوالى سنة ٦٠٠ للميلاد . وتاريخ هذه الفترة يكتنفه شيء من الغموض ، فلا نعرف مثلا كيف ومتى تقسمت إلى قسميها : النوبة السفلى وكانت (للمقرة) ، والنوبة العليا وكانت فيها مملكة(علوة) التى امتدت من الشلال الرابع إلى أعالى سنار لكن كتابات المؤرخين العرب تشير إلى أن مسيحيي النوبة كانوا يتجهون فى زعامتهم الروحية إلى الكنيسة المصرية . ولم يخلف العهد المسيحى فى شمال السودان حضارة مادية متميزة ، إذ لا يرجع إليه إلا بعض آثار لكنائس وأديرة ، معظمها فى الواقع من بقايا العهد السابق للمسيحية ، ثم حوله أهل النوبة — بعد اعتناقهم المسيحية — إلى كنائس ، وطلوا النقوش الهيروغليفية والنقوش القديمة بالطين ، ورسموا على الطلاء صور المسيح والقديسين[١] .

٧ — استطاعت النوبة أن تصمد أمام المسلمين فى الشمال قرونا طويلة ، لكن لم يمنع ذلك من تسرب المسلمين وثقافتهم إلى النوبة وأهلها إلى أن كانت الغلبة للمسلمين ، فضعف طابع النوبة واصطبغت البلاد وسكانها بالصبغة العربية الإسلامية . فكان هذا إيذانا بانقلاب ثقافى سنراه يربط السودان بالعالم العربى وثقافته الإسلامية ، ولكنه سيظل يولى وجهه فى زعامته الثقافية والروحية إلى نفس القبلة الشمالية التى اتجه إليها دائما ، باعتبار أن هذا هو المدخل الطبيعى لتلك المؤثرات . والكتاب كلهم يجمعون على أن شمال السودان وحدة ثقافية منسجمة تتصل اتصالا تاما بالعالم الإسلامى وثقافته ، وتكون جزءاً لا يتجزأ من هذه الكتلة

---

(١) التربية فى السودان ح ١ ص ١٥

الحضارية التى تجاورها فى شمال إفريقية وغربها وفى الغرب والجنوب الغربى للأقاليم الاستوائية .

٨ — لكن إلى أى مدى أثر الإسلام وحضارة المسلمين بين الجماعات التى تسكن أعالى النيـــل ؟ ، والواقع أن عملية صبغ السودان بالثقافة الإسلامية كانت عملية مستمرة ، وكان وصول مؤثراتها إلى الجنوب يسير منتظما ومطردا . وإذا كنا نرى أن هذه الحركة الطبيعية لانتشار الإسلام بين باقى الجماعات السودانية التى لم تدن به قد ضعفت ووقفت ، فمرجع هذا إلى تلك السياسة التى تتبعها الإنجليز فى حكمها المنفرد فى السودان ، توطئة لإبقاء أقليات شاذة فى ثقافتها ، تستطيع أن تشجع باسمها تقسيم السودان ، وتقطيع أوصال وحدته ، باسم حماية الأقليات ، والمحافظة على حقوق الجماعات .

والواقع أن مصلحة السودان عامة - والجماعات الجنوبية من سكانه بوجه خاص — هى فى أن يعمم الإسلام فيه ، وأن يترك هذا الجزء من أعالى النيل ليصبغ بالصبغة الإسلامية ، وإننا ندعو إلى هذا لأن المصلحة تقتضيه ، ولأن هناك أسباباً قوية تدعو إليه منها :

(ا) أن الاتجاه المنطقى هو إلى أن نعمل على توفير الانسجام الثقافى من الناحيتين اللغوية والدينية بين سكان الوحدات الثقافية المختلفة ، كضمان لحسن التفاهم وقوة التعاون ، وكوسيلة لإزالة ما قد يسبب الاحتكاك والتنافر إذا قامت أقلية — أو أقليات — تشذ فى لغتها وثقافتها عن الغالبية الكبرى للسكان (كما حدث بالفعل عندما قامت ثورة الجنوب فى أغسطس سنة ١٩٥٥) .

وما دمنا قد رأينا أن المقومات الطبيعية والعوامل الجغرافية وأن

الأغلبية العظمى من السكان تتكلم العربية وتدين بالإسلام ، فالأمر الطبيعى هو توجيه الجهود إلى تقريب ثقافة الجنوب من ثقافة الشمال .

(ب) أن الجماعات التى تعيش فى الجنوب لا تكون بأى حال من الأحوال وحدة ثقافية ، يمكن أن نغذيها ، ونحافظ على خصائصها ، بل إنها على العكس من ذلك جماعات تتميز بأنها لا تنسجم مطلقا فى ثقافتها ولا يتفق بعضها مع بعض فى كثير من خصائص تلك الثقافات . ويؤكد الأستاذ (برتشارد) : « بانه من الصعب جدا فى الوقت الحاضر أن نضع تقسيما مقبولا لحضارات السودان الوثنى » .

فإذا كان هذا هو الموقف ، وكان هذا هو التعقد الثقافى فى تلك المنطقة المحدودة ، فكيف يمكن أن يرتفع المستوى الثقافى أو يوجد الانسجام الفكرى . ويقول بعض الكتاب : « لن يكون هناك تقدم فى هذه الجهات — مادامت هذه اللغات المتعددة قائمة تجعل التفاهم أمرا مستحيلا ، إن من الواجب وجود لغة مشتركة » ، فلم لا تكون العربية هى اللغة المشتركة التى توحدبين هذه الجماعات الجنوبية من الناحية الثقافية فتكون هذه خطوة أولى لرفع مستواهم ، والقضاء على ركودهم الفكرى ، وتأخرهم فى نواحى الحضارة سيما وأن اللغة العربية ليست مجهولة تماما فى الجنوب ، بل إن هناك لونا من اللغة العربية الدارجة هى بمثابة اللغة المشتركة فى جنوب السودان .

(ح) إن الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية ، كانا دائما أقرب إلى عقلية الجماعات البدائية ، وأسهل انتشارا بينها من الديانات والثقافات الأخرى . ويؤيد هذا الرأى ما قاله (هكسلى) فى كتابه عن افريقية . « . . . هنالك عدد كبير من الناس يعتقدون أن الإسلام أحسن الأديان للرجل الأفريقى ، لأنه يشجع على استقرار أعظم ، ويغرس فيه احتراما

أكثر لنفسه والسلطة الحاكمة ، كما أنه لا يشجع على القلق والمراءاة بقدر مايشجع التحول إلى المسيحية » .

(ء) إن فرض حضارة غريبة كل الغرابة على مجتمع آخر لا يتصل بها بسبب من الأسباب لن يؤدى إلا إلى زلزلة أركان المجتمع ، ولن ينتج عنه إلا الفوضى الاجتماعية . ولهذا فإن خير ألوان (التحضر) والتقدم ما يأتى على جماعات لاتتباين فى حضارتها وتقدمها تباينا تاما عن حضارة المجتمع الذى نريد أن نؤثر فيه . فالمنطق السليم يقضى أن يكون (عملاء) الثقافة (ووسطاء) الحضارة هم السودانيون أنفسهم ؛ فبهذا تصل التيارات الثقافية المختلفة معدلة محورة ، ويستفيد جنوب الوادى من الاتجاهات الخارجية ، دون أن يصيب كيانه تصدع لا يرجى له التئام .

والخلاصة من كل هذا أن الروابط الثقافية ظلت مستمرة بين سكان حوض النيل كله طوال عهود التاريخ ، وأن مصلحة الجزء المحدود من جنوب الوادى فى أن يصطبغ بنفس الصبغة التى اصطبغ بها غالبية سكان الوادى من حيث اللغة والدين . وقد كان هذا هو الاتجاه الطبيعى الذى يتجه إليه لولا تلك العوامل الطارئة التى كانت لاتريد هذا الاتصال والتى أصبحت غير ذات موضوع . أما الآن فقد أصبح الطريق ممهدا والباب مفتوحا لتنفيذ هذه السياسة .

ثانيا : الناحية الاقتصادية :

سنعالج هذه الناحية الهامة بالشكل الآتى :

(ا) الناحية الزراعية والثروة الحيوانية .

(ب) الناحية الصناعية والتجارية .

(حـ) المصالح المشتركة فى ماء النيل ،

١ — الناحية الزراعية :

إن امتداد حوض النيل من حوالى خط عرض ٤° شمالا إلى حوالى خط عرض ٣١ شمالا يؤدى إلى لون من التباين فى الظروف المناخية والأحوال النباتية . وكل هذا يجعل من أقاليم وادى النيل وحدات يكمل بعضها بعضا فى الإنتاج الزراعى ، كما هو وحدة متكاملة فى نواحى الإنتاج الأخرى.

٢ — الأيدى العاملة : المعروف أن كثافة السكان فى جهات السودان المختلفة كثافة قليلة ، والملاحظ أن غالبية السكان تمارس حياة الرعى وبخاصة إذا ابتعدنا عن النهر وروافده . ولو أن السودان ظل بهذه الكثافة المحدودة لظل إنتاجه الزراعى قليلا ، ولعطل كثير من موارده الطبيعية التى لاتزال بكرا ، وللمصلحة المشتركة بين مصر والسودان يجب أن يظل التعاون بين المصريين والسودانيين قائما بشكل لا تضحى فيه مصلحة جانب لحساب الجانب الآخر ، ونظرا لعدم وجود فوارق لغوية أو دينية بين الطرفين فإن نجاح هذه الخطة أمر مؤكد ، وفائدة الطرفين من ذلك فائدة محققة .

٣ — المهارة الفنية : فتجارب السودانيين بالزراعة تجارب محدودة ، ووسائلهم فيها وسائل بدائية فى معظم الأحوال ، وسيكون الفلاحون المصريون — المتعاونون مع إخوانهم السودانيين — بتقاليدهم العريقة فى الزراعة ، وباندماجهم اندماجا تاما فى إخوانهم السودانيين خير العناصر التى يمكن أن ترتفع بمستوى الإنتاج فى السودان . وسيخلق هؤلاء الفلاحون المصريون بيئة زراعية ناجحة ، تتسع دائرتها بالتدريج إلى أن تعم الأقاليم السودانية كلها .

٤ — رأس المال : السودان بعد استقلاله فى حاجة إلى رءوس أموال ضخمة لينهض بالمشروعات المتعددة المختلفة فى كثير من النواحى. ولما كانت القدرة الإنتاجية فى البلاد لاتفى بالغرض، فلا بد من أنه سيحتاج لرءوس أموال أجنبية، وفى مصر أموال كثيرة غير مستغلة واستعداد كبير من أصحابها إلى أن يوجهوا جهودهم إلى السودان باعتباره قطرا بكرا. وإذا كانت مصر قدمت — عن طيب خاطر — كل ما احتاج إليه السودان من أموال، وسدت برضاها كل عجز فى ميزانيته، وأنفقت بسخاء على كل نواحى التعمير فيه، فستكون فى ظل استقلال شقيقها (السودان) أكثر استعداد لهذا كله.

٥ — وأهم المناطق التى تقوم بها الزراعة فعلا فى السودان، والتى يمكن التوسع فى المساحة المزروعة منها إذا هيئت لذلك الأسباب هى :

مديرية الشمال ومنطقة الخرطوم وأرض الجزيرة ومنطقة الجاسن ومنطقة طوكر ومنطقة النيل الأبيض وبحر الغزال. ومعنى ذلك أن هناك متسعاً لنشر الزراعة وتنمية مواردها، إذا أمكن التغلب على الصعوبات المختلفة.

٦ — الثروة الحيوانية : وهى تعتمد على الحالة النباتية اعتمادا تاما. ومستقبل الثروة الحيوانية فى السودان عظيم، فإذا كان فى الإمكان أن ينمى هذا المورد فى جهات السودان المختلفة، فإن ذلك يكون كفيلا بسد الجزء الأكبر من حاجة مصر التى تستورد من الخارج كميات كبيرة من الحيوانات، ويجعلها تتجه إلى مصادر الإنتاج الأخرى معتمدة على شقيقتها فى توفير ما تحتاجه من حيوانات. وهذا يفسر لنا ما سبق

أن ذكرناه من أن وادى النيل يكون وحـــدة متكاملة فى نواحى الإنتاج المختلفة .

(ب) الناحية التجارية والصناعية :

١ — تشير الكتابات الانجليزية كلها إلى فقر السودان فى كثير من المواد الأولية اللازمة لقيام الصناعة ، وإلى عدم وجود ثروة معدنية أو وقود كاف . ويستخلصون من هذا كله أن مستقبل السودان سيستمر معتمداً على الزراعة التى يتصدر القطن حاصلاتها ، ثم يأتى بعده حاصلات الصمغ العربى والسمسم والدخن والفلفل والفول الخ . وهذا القول لا أساس له من الصحة ، لأنهم قالوا ذلك عن مصر من قبل . وغرضهم من هذا التمويه هو إخضاع الاقتصاد السودانى لمطالب الصناعة البريطانية (كما هو واضح من التوسع فى زراعة القطن) ، وفى الوقت نفسه تتخذ من السودان سوقا لبضائعها . وعلى الرغم من أن مصر كانت ترى أن المصالح الاقتصادية للقطرين (مصر والسودان) واحدة ، وحرصت فى اتفاقية (١٨٩٩) على جعل مادة خاصة (المادة السابعة) فى الاتفاقية لتنظيم العلاقات التجارية بين مصر والسودان ، إلا أن الإدارة الإنجليزية فى السودان حرصت من جهة أخرى على خلق العراقيل فى سبيل التبادل الاقتصادى بين القطرين حتى إن الكثير من الواردات الأجنبية كانت ترد إلى السودان بأسعار رخيصة جداً عن الواردات المصرية .

٢ — كانت مشتريات حكومة السودان ـ حتى فى ظل الحكم الثنائى ـ يطلب معظمها من انجلترا مباشرة . وفى كثير من الأحيان بدون عمل عطاءات . ولا شك أنه كان من مصلحة السودان ، وصالح الخزانة العامة ، أن يعطى المنتجون فى مصر فرصة التقدم بعطاءاتهم .

٣ — إن مصر سوق هامة لإنتاج السودان ، بحكم الجوار من جهة ، واختلاف الحاصلات من جهة أخرى ، وقد بلغت حصة مصر فى كثير من السنوات ٧٥٪ من جملة تلك الصادرات (صادرات السودان) كالأغنام والماشية وما تنتج من سمن . وكالأسماك المملحة والذرة العويجة والسمسم والفول السودانى والفاصوليا والحمص والبسلة والترمس واللب والبلح والشطة ... الخ . لكن الإدارة الإنجليزية فى السودان عمدت — فى عهد احتلالها لمصر — إلى توجيه الاقتصاد المصرى توجيها أضر بعض الشيء بواردات مصر من السودان ، بزيادة إنتاجها من السلع التى كانت تعتمد فيها على السودان فى معظم الحالات ، أو بفرض رسم على بعض السلع السودانية التى كانت معفاة منها فيما مضى .

٤ — لكن رغم هذا لم تتوان مصر مطلقا عن تقديم كل مساعدة ممكنة للسودان الشقيق ومده بحاجاته ، وتسهيل تصدير منتجاته ، واتضح ذلك فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، فعلى الرغم مما استوجبته تلك الحرب من تشريعات قاسية خاصة بالتصدير والاستيراد ، فإن صادرات مصر إلى السودان ظلت كما كانت فى الظروف العادية ، لا يحدها تشريع ولا يقيدها قانون ، لا لشيء إلا لما تشعر به مصر من روابط تستدعى كل هذه التضحية ، فى وقت عز فيه توافر كثير من السلع التى كنا نصدرها إلى السودان ، حتى شركة السكر المصرية ظلت وحدها تقريباً تمون السودان بالسكر اللازم لاستهلاكه طوال مدة الحرب ، رغم ما قاساه المستهلك المصرى من صعوبة الحصول على حاجاته من هذه السلعة بالذات .

٥ — وعلى حين كانت مصر تقوم بكل هذه الخدمات ، وتسهل على السودانيين أمور تموينهم ، كانت حكومة السودان تتبع سياسة تقييد

تجاه صادرات السودان إلى مصر ، كانت تصل إلى حد المنع والحظر فى كثير من الأحيان ، فضلا عن حصرها حركة التصدير فى هيئة بريطانية معينة ، كانت تشترى حاصلات السودان بأسعار مخفضة ثم تبيعها فى مصر بأضعاف ما اشترت . وكان هذا التصرف محل تذمر السودانيين والمصريين على السواء » .

٦ — ولما كان توجيه السودان — فى التجارة الخارجية — هو ناحية مصر والبحر الأحمر ، فإنا نرى أن ما يقوى العلاقات الاقتصادية بين القطرين ، وينمى الإنتاج فى وادى النيل ، كما ينمى عملية التبادل ، ويزيل شكايات المصدرين والمنتجين يمكن أن يعتمد على الإصلاحات الآتية :

(ا) تسهيل المواصلات بربط السكك الحديدية المصرية بالسكك الحديدية السودانية بين الشلال وحلفا ، وإنشاء طريق السيارات ، وتخفيض أجور نقل الحاصلات بين القطرين وهذا المشروع فى طريقه إلى النور .

(ب) تخفيض أجور المخابرات التلغرافية والتليفونية بين القطرين بعد أن تم الاتصال التليفونى بينهما .

(ح) العمل على تفضيل المنتجات السودانية فى العطاءات الحكومية المصرية . . .

(ى) العمل على حماية المنتجات السودانية فى السوق المصرية ، بفرض ضرائب عالية على الواردات المصرية المماثلة لها ، وتشجيع المنتجات المصرية تشجيعاً يمكنها من منافسة المنتجات الخارجية فى أسواق السودان .

٧ — هذه — من غير شك — خطوات إيجابية فى توثيق عرى الناحية الاقتصادية بين البلدين ، ولكنها فى الواقع كانت تصطدم دائماً

بسياسة الإنجليز المقررة ونواياهم المبيتة لعرقلة هذه الجهود . وقد استغلوا حكمهم المنفرد فى السودان ، فلم يتقيدوا بنصوص المعاهدات ، ولم يسهلوا مهمة الخبير الاقتصادى للسودان التى كانت تتضمن توطيد العلاقات التجارية بين البلدين على أساس المنفعة المتبادلة والمصالح المتداخلة فى كل نواحى الإنتاج ، بل هم على العكس قد جعلوا منها وظيفة معطلة . والآن وقد أصبح السودان الشقيق جمهورية مستقلة فإنا نرجو أن يتم التبادل بين البلدين بطريقة سهلة ميسرة ، على أساس مصلحتهما معاً .

٨ — ويقتضى هذا التنظيم الجديد — فى ظل الاستقلال — تشجيع قيام عدد من الصناعات المحلية التى تتوافر لها عوامل النجاح فى السودان وستكون كلها فى الغالب صناعات زراعية ، أو صناعات تستفيد من التوسع فى تربية الحيوانات . وهذه الصناعات لا يرجى لها قيام أو تقدم إلا بمساعدة خارجية ، ومصر الشقيقة لا تبخل بتقديم عناصر الخبرة والأيدى العاملة ورءوس الأموال ، فى سبيل تقدم السودان ورفاهته .

(حـ) المصالح المشتركة فى مياه النيل :

١ — إن الأهمية الحيوية لنهر النيل بالنسبة للأراضى التى يمر بها ، تعتبر عظيمة جدا . وأهميته لمصر تفوق بكثير أهميته لأقاليم الحوض الأخرى ، وخاصة بعد أن تحولت أراضى مصر من نظام رى الحياض إلى نظام الرى الدائم . وهذه الأهمية اقتضت ضرورة تنظيم تصريف مياه النهر ، ومصر من جهتها قد انتهت تقريبا من إقامة جميع المنشآت التى تمكنها من تنظيم ماء النيل داخل أراضيها ؛ وأخذت تقيم المنشآت المتصلة بهذا التنظيم فى أراضى السودان . وبهذا أخذت علاقاتها بهذا الشطر الجنوبى من وادى النيل فى دور جديد يتطلب اطمئنانا تاما إلى

رعاية هذه المصالح الحيوية ، وتمكين مصر من أن تنفذ كل تلك المشروعات التى يتطلبها تطورها الاقتصادى مستقبلا .

٢ — ونظراً لأن عدد سكان مصر يزداد باستمرار زيادة مطردة وبنسبة عالية ، ونظرا لضآلة مايخص الفرد من الأراضى الزراعية . لذلك وجب التفكير الجدى فى أخذ خطوات لتوسيع المساحة المزروعة ، بحيث يتم استصلاح الأراضى التى يمكن أن تستغل استغلالا زارعيا مكسيا . وقد قدر مؤلفو[1] كتاب « حوض النيل » أن الوصول إلى الزراعة (٠٠٠و١٠٠و٧ فدان) فى مصر سوف يحتاج إلى (٨ر٥ ميارا) من الماء ، ويرون من الضرورى — لكفاية حاجة مصر من الماء — إقامة المنشآت وتنفيذ المشروعات التالية ، وهى مشروعات يتفق معهم فى معظمها من عالج هذا الموضوع من الأخصائيين :

(ا) خزان جديد فى الإقليم بين العطبرة وحلفا .

(ب) خزان بحيرة البرت مع تنظيم صرف مياه بحيرة فكتوريا .

(حـ) قناة فى منطقة السدود.

(ء) خزان بحيرة تانا .

والواقع أن مشروعات الرى التى يفكر فيها لا يقصد منها مجرد تحويل أراضى الحياض إلى رى دائم واستصلاح الأراضى البور التى يمكن زراعتها ، بل هنالك دواع أخرى منها :

(ا) توفير الماء الصيفى لتوسيع المساحة التى تزرع رزا كل عام .

(ب) توفير الماء لتقريب المناوبات الصيفية التى يقاسى الفلاحون كثيرا من طول الفترات بين المناوبات .

---

(١) هرست وبلاك وسميكه "The Nile Baisr"

(هـ) توفير الماء الذى يكفى للوصول إلى الأراضى الواقعة على نهايات الترع .

(و) إمكان التبكير فى زراعة المحصولات النيلية التى تضر كثيرا من تأخير زراعتها .

من هذا كله يمكن أن ندرك طبيعة المصالح المصرية فى السودان ، وأن نلمس وقف التقدم الزراعى فى مصر على ضمان حصول مصر على الكميات اللازمة لها من ماء النيل .

٣ - والملاحظ أن الكتابات الإنجليزية تجمع كلها على حق مصر فى الماء ، وضرورة تمتعها بكل الضمانات التى تؤكد لها هذا الحق - فاللورد كرومر فى كتابه عن السودان كان ينظر إلى النيل على أنه نهر مصر . وأن السودان فى نظره إنما هو مجرد طريق يحمل إلى أراضى الدلتا الخصب والحياة . وقد أعلن مستر (رمزى مكدونلد) هذا الحق الذى تتمسك به مصر إعلانا صريحا فى مجلس العموم البريطانى فى جلسة ١٠ يولية سنة ١٩٢٤ بتصريحه الآتى : « إن على الفلاح المصرى أن يظل مقتنعا تماما بأن استقلال السودان - نتيجة للاتفاقية التى نحن مستعدون لإتمامها - لن يكون معناه أن نصيبه من الماء سوف يقل شيئاً عما كان يمكن أن يتمتع به لو كان هو الذى يحكم السودان وينظمه » .

٤ - لكن هذه التأكيدات قد تكفى لطمأنينة الشعوب على أمور ثانوية ؛ لكن من الصعب أن يركن المصريون إليها فى مسألة تتوقف عليها حياة الملايين منهم سيما وأنهم يعرفون تماما أن الخلق السياسى لم - ولن - يرتفع إلى الدرجة التى يمكن الاطمئنان إليها كثيرا . وعند المصريين من الأدلة ومن السوابق ما يجعلهم لا يطمئنون لألاعيب الإنجليز فبعد

خمسة أشهر فقط من هذ التصريح ، كانت الحادثة الفردية التي أودت بحياة (سيرلي ستاك) — سردار الجيش المصري — في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤ فأرسلت بريطانيا بإنذارها المشهور إلى الحكومة المصرية متحللة تماما من القيود التي أخذتها على نفسها بخصوص مياه النيل . وهذا ما يؤكد للمصريين أن مجرد الاتفاق على توزيع ماء النيل لن يطمئن مصر على حقوقها مادام الانجليز مسيطرين على شئون السودان . وقد تجلى هذا التشكك بمظهر عملي في المعارضة القوية التي وجهتها مصر إلى مشروع جبل الأولياء . أما وقد تم عمل هذا الخزان واستفادت مصر من تخزين المياه خلفه فائدة محققة ، فإن ذلك لا ينفي أن في استطاعة من بيده الأمر في السودان أن يلحق ضررا بليغا بالزراعة المصرية إن تعمد إساءة استعمال هذا الخزان . وما يقال عن جبل الأولياء يمكن أن يقال عن المشروعات الأخرى التي تقتضي مصلحة مصر أن تقام على جهات مختلفة في أعالي النيل . ومن هنا أكد الكتاب جميعاً — فنيين وسياسيين — ضرورة التريث في البدء بها ، حتى تستقر العلاقات السياسية بين مصر والسودان ، وتزيل تلك المواضع التي يأتي لمصر منها التهديد . وكان هذا التحذير صريحا في دراسة لجان ما بعد الحرب ، إذ أوصى المختصون ببحث مشروعات الري مستقبلا بألا تجازف الحكومة المصرية بصرف ما تتطلبه مثل تلك المشروعات من ملايين الجنيهات إلا إذا تحركت مقاليد الأمور لشعبيهما ، وتخلت تلك القوة الدخيلة التي تسعى للتفرقة بينهما ، وتصوير مصالحهما بصورة التعارض والتنافر .

أما وقد تحققت هذه الأمنية وتخلص كل من مصر والسودان من التدخل الأجنبي الممقوت ، فمن المنتظر أن تبدأ الشقيقتان دورا جديدا من أدوار العلاقة المبنية على المحبة والإخلاص وحسن التفاهم ، وتصفية

كل الأمور — التى عطلها المستعمر بقصد الصيد فى الماء العكر — تصفية ترضى كلا من الطرفين .

(ثالثاً) تقدم العمران فى السودان :

قد يخالج القارىء الشك فى صحة وضع هذا العنصر تحت عنوان هذا الفصل ، ولكنه إذا عرف أن تقدم العمران فى السودان ورفاهيته قد لعبت فيه يد المصرى دورا هاما فعالا ، اقتنع بصحة ماقصدنا معالجته تحت هذا العنوان من نقاط :

١ — تأسيس المدن : كان تأسيس المدن فى طليعة ما عنيت به مصر فى السودان ، فأسست الخرطوم سنة ١٨٢٢ ، فصارت من ذلك الحين عاصمة السودان . وأقام المصريون فيها المبانى والعمائر والمساجد ، ودارا لإحدى البعثات الدينية المسيحية (١٨٤٨) . كما شيدوا فيها الثكنات والمستشفى ودار صناعة السفن والمساكن . وأصبحت بعد أعوام قلائل ملتقى المتاجر من أنحاء السودان . وازدهر العمران فيها وأضحت مركزاً لرحلات الكشف الجغرافى . وتزايد مع الزمن تعدادها ، فبلغ — فى عهد الفتح المصرى — ثلاثين ألف نسمة .

كما أنشأ المصريون مدينة كسلا عاصمة إقليم التاكا الذى يقع بين محافظتى مصوع وسواكن وحدود الحبشة .

كذلك أنشئت مدينة فامكا على النيل الأزرق عام ١٨٤٠ فى إقليم سنار على بعد ٢٥ ميلا من الرصيرص ، وجعلت عاصمة مديرية فازوغلى .

وبعد انتهاء عهد المهدية فى السودان ، وما أصاب البلاد من خراب وتدمير على أيدى الثوار . بدأت أدوات السلام والتعمير نشاطها ، واستهلت

أعمال الإنشاء والبناء فى عام ١٨٩٩ . وكان أول بناء شرع فيه سراى الحاكم العام وسردار الجيش — التى بناها اللواء ممتاز باشا خلال حكمداريته (١٨٧١ — ١٨٧٣) والتى خربها الثوار ولم يتركوا منها إلا حوائط الواجهة بغير سقف ولا نوافذ ، واستمر العمل فيها من سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٦ وما زال القصر باقياً إلى اليوم حيث أصبح القصر الجمهورى للسودان .

وشيد الجنود المصريون قصر دواوين الحكومة الذى يضم بين جوانحه إدارات المالية والحربية والقضاء والداخلية والزراعة ، كما أقاموا مبانى مصالح البريد والتلغراف والتليفونات . كما بنى الجيش المصرى مبانى المكاتب الحكومية الخاصة بتسجيل الأراضى والصحة والمطبعة الأميرية ورياسة المحاكم الشرعية . هذا فضلا عن ثكنات الجيش التى شيد منها أربع تحيط بالخرطوم من الخارج وخامسة داخل الخرطوم لكتيبة مشاة ، وثلاث ثكنات لثلاث بطاريات مدفعية . كما شيدت ثكنة كبيرة أو بعبارة أخرى مدينة صغيرة تحتوى على عشرات من المبانى المنفصلة التى تشغل حوالى خمسين فداناً ، وقد أسهم البناءون المصريون على نفقة حكومتهم فى بناء ثلثى المبانى ثم قامت الحكومة الإنجليزية بتكملة ما تبقى . وبنى الجيش المصرى مخازن الأسلحة ومهمات وذخائر الجيش داخل الثكنات الإنجليزية لغرض خاص . وعلى نفقة وزارة الأوقاف المصرية شيد فى الخرطوم المسجد الكبير الفخم ، بنته مصلحة الأشغال العسكرية المصرية بالسودان ، كما بنى المسجد الجديد على نفقة مصر وهو يعتبر تحفة فنية رائعة فى العاصمة . وفى الخرطوم بحرى أنشئت بضعة مخازن وورش كبرى ، بها ما يلزم الجيوش من مهمات وملابس ، وهذا

البناء يشغل حوالى عشرين فداناً . كما بنى سجن مدنى وهو يسع ثلاثة آلاف مسجون . وبأموال مصرية شيدت مخازن تعيينات الجيش ، فضلا عن مخازن وورش كبرى لمصلحة وابورات النيل والسفن .

ليس هذا فحسب كل ما شيده المصريون العسكريون فى الخرطوم . فإن القائمة طويلة ولن نأتى منها إلا بالعمائر الهامة كالمستشفى العسكرى الكبير ، ومساكن كبار الموظفين الإنجليز (حوالى ٢٢ مسكناً) ومبانى فى مدينة الخرطوم ، التى تضم أفرعها المختلفة والمحاكم المحلية التى تزدان بها المدينة حتى اليوم .

وفى أم درمان : شيدت ثكنتان كبيرتان ، ومستشفى عام وثكنة للمدفعية بالإضافة إلى ثكنات إلى الخيالة .

كل هذه المنشآت بناها المصريون بأموال مصرية فى الخرطوم وأم درمان ، ما عدا كلية غوردون (جامعة الخرطوم) فقد شيدها المصريون بأموال التبرعات الإنجليزية وفى العطبرة وفى شندى وفى حلفا وفى بربر وفى واد مدنى وفى كسلا وفى الأبيض وفى الفاشر ، فى كل هذه المدن شيد المصريون وعمروا ، وأقاموا معالم الحضارة والعمران من مستشفيات ومساكن ومعاهد . . . الخ .

لحلفا خاصة كانت قرية صغيرة إلى أن بدئ فى إنشاء رأس السكة الحديدية ، فبنيت فيها ورشة كبرى وثكنة للجيش ومستشفى عسكرى ومسجد ، ومد منها خطان حديديان أحدهما يسير محاذياً للنيل إلى الكرمة وثانيهما يخترق الصحراء إلى أبو حمد والخرطوم . أما بور سودان فهو ثغر السودان ، والمنفذ الوحيد الصناعى للأقطار السودانية الشاسعة ،

عمل الإنجليز على إنشائه بدلا من سواكن ، فأنشئ بأموال مصرية ، وفتح فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٦

٢ — التعليم :سبق أن تكلمنافى نفس الفصل عن العلاقات الثقافية بين مصر والسودان فى العصور القديمة والوسطى بوجه خاص ونذكر هنا أن مصر لم تقصر فى نشر التعليم الحديث فى ربوع السودان[١] . وقد رأينا فى الفصل الرابع أن عباساً الأول فتح فى الخرطوم سنة ١٨٥٠ مدرسة لإنقاذ أهله من جحيم الجهل ، وهذه المدرسة هى الأولى من نوعها فى السودان على نظام المدارس المصرية ، وفى بربر فتحت أول مدرسة ابتدائية (١٨٧٥) وأنشأ أمين باشا فى اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء مدرسة لتعليم أبناء الأهلين ومستشفى ومسجدا .

وفى عهد اسماعيل تم افتتاح خمس مدارس فى السودان بمديريات الخرطوم وبربر ودنقله وكردفان والتاكة . وفى عهد ابنه توفيق أنشئت فى الخرطوم مدرسة طبية ، وزاد إقبال السودانيين على الأزهر بفضل توافر عوامل التشجيع من مسكن وجراية وأمن فى الطريق . وشاهد السودان فى القرن ١٩ — بسبب اتصاله الوثيق بمصر — من معاهد العلم الحديثة ومن رجال التربية والتعليم والقضاء والدين ما لم يشاهده فى أى عصر مضى ، فهذا القرن فى السودان يتميز بمدارس حكومية ، وببعثات علمية إلى مصر ، وبتشجيع السودانيين على التعليم فى الأزهر ، ومنحهم المطعم والمسكن والمكافآت المادية . كما يتميز باهتمام والى مصر بالمعاهد الأهلية الدينية ، وبذله المساعدات المالية فى صور مختلفة ، من نقود

---

(١) راجع كتاب التربية فى السودان فى القرن ١٩ للدكتور عبد العزيز عبد المجيد (القاهرة ١٩٤٩)

وحبوب وأراض تزرع من غير خراج ، إلى أوسمة وألقاب شرف .

ولما جاءت الثورة المهدية قضت على كل ما فعلته مصر فى هذه الناحية . وفى ظل الحكم الثنائى فى السودان أصبح نشاط مصر التعليمى كالآتى :

١ — عمد الإنجليز الذين كانت لهم الكلمة النافذة فى ظل هذا الحكم إلى منع ذهاب السودان إلى مصر للتعلم فى الأزهر ، وأنشأوا المعهد العلمى بأم درمان مع الاستعانة بأساتذة مصريين . كما عمدت إلى خلق سجادات (مشيخات للطرق) فى السودان منفصلة عن رياستها فى مصر لقطع الصلة الروحية ما أمكن بين مصر والسودان .

٢ — لما فتحت المدارس السودانية الأميرية الإبتدائية (مدرستان فقط) فى السودان ، استعانت الحكومة بمدرسين متمصرين (هم من أصل تركى) حتى إذا وقعت منهم الإساءة نسبت إلى مصر .

٣ — لما جاءت الحرب العالميـــة الأولى قطعت انجلترا صلة السودان بمصر .

٤ — فى ١٩١٦ صرحت الحكومة للجمعية القبطية بالخرطوم عمل مدرسة للبنين (ابتدائى) ، تسير فى مناهجها على النمط المصرى ، ثم انتشرت المدارس التابعة للجمعية فى كثير من حواضر السودان ، فكانت هذه الجمعية أولى رواد الثقافة المصرية فى السودان فى القرن العشرين ولم يقم قسم خاص لتعليم البنات منفصلا إلا فى أوائل العقد الخامس ففتحت مدرستان ابتدائيتان للبنات إحداهما بالخرطوم والثانية بالعطبرة .

٥ — ولما فشلت الإرساليات المسيحية فى مهمتها التبشيرية التعليمية استعانت بمصريين للتدريس فى الكنائس ، كما أنها عربت الصلوات ليسهل على المسيحيين من الشعب تفهمها .

٦ — وعندما أكرهت انجلترا بسبب ظروف الحرب سنة ١٩٤٢ وافقت على فتح أربع مدارس حكومية ابتدائية مصرية فى الشجرة والجبل وملكال ثم الخرطوم الثانوية المصرية ، وكانت تسمى مدرسة (الملك فاروق) . وبمرور الزمن فى الفترة التالية بلغ عدد المدارس المصرية الخاضعة لوزارة التربية والتعليم المصرى (١٨ مدرسة) تضم أكثر من عشرة آلاف طالب وطالبة. هذا فضلا عن المدارس المصرية الأخرى غير الخاضعة للتفتيش وتعطيها الحكومة المصرية إعانات ممثلة فى الكتب والأدوات مثل مدرسة الشعب بخرطوم بحرى ومدرسة الأقباط بأم درمان وفضلا عن الإعانات التى تقدمها وزارة التربية والتعليم المصرية إلى المدارس السودانية الأهلية مثل مدارس المؤتمر والأهلية والأحفاد الخ .

٧ — والحكومة المصرية لا تضن على المعارف السودانية بمدها بالمدرسين الفنيين لمدارسها علاوة على التعاقد الشخصى الذى تقوم به حكومة السودان مع بعض الأساتذة المصريين . ويظهر هذا التعاون جليا إذا عرفنا أن ربع أساتذة جامعة الخرطوم من المصريين وخاصة فى الكليات العملية .

٨ — وامتد نشاط جامعة القاهرة إلى القطر الشقيق ، ففتحت فرعا لها بالخرطوم ، منحته الاستقلال الإدارى ، ويضم هذا الفرع الآن ثلاث كليات هى الآداب والتجارة والحقوق ، وتضم الكلية الأولى منها أربعة أقسام : هى العربى والتاريخ والجغرافيا والاجتماع . وجامعة القاهرة جادة فى استكمال كليات فرع الخرطوم كلما تيسرت لها الإمكانيات اللازمة .

وكان عدد طلاب وطالبات الجامعة فى السنة الأولى (٥٠ / ٥٦). هو ٢٦٧ وفى السنة التالية قفز العدد إلى ٤٢٣ ، وفى هذا العام (٩٥٧/٥٨)

أصبح العدد ٥٤٢ من بينهم ٤٨ طالبة (٣٠ فى الآداب ، ١٣ فى الحقوق، ٥ فى التجارة) .

ويستعين الفرع بالأساتذة المنتدبين من الجامعات المصرية فضلا عن أنه عين بعض الأساتذة المتفرغين للتدريس فى الكليات المختلفة .

٩ — وفى فبراير سنة ١٩٥٦ صدر قرار وزارى مصرى بإنشاء فرع للجامعة الشعبية المصرية بالخرطوم ، وفى ٢١ منه افتتح الفرع فعلا للرجال والسيدات .

وتنوعت الشعب الثقافية التى تضمها الجامعة الشعبية :

(ا) فالرجال : الشعبة التجارية وتشمل العلوم التجارية والآلة الكاتبة بقسميها (العربى والإفرنجى) ، والاختزال بقسميه . ثم شعبة الصحافة والعلوم السياسية والتاريخ . ثم شعبة التربية الفنية . ثم التمثيل والموسيقى والصناعات الكيموية والخط العربى .

(ب) وللسيدات : شعبة اللغات الثلاث (العربية والإنجليزية والفرنسية) . ثم التدبير المنزلى (طهى وتفصيل وتطريز والتمريض .الخ) ثم الموسيقى .

(ى) قسم الخدمات العامة ويشرف على المحاضرات الثقافية والسينما والمطبوعات الأدبية والرحلات . وقد قامت الجامعة الشعبية برحلة فى صيف ١٩٥٧ زارت فيها البلاد العربية (مصر وسوريا ولبنان .. الخ) اشترك فيها ٢٥ من الرجال ومثلهم من النساء . وكانت كل من الرحلتين منفصلة عن الأخرى .

والجامعة الشعبية المصرية نظرا لنشاطها الممتاز فى النواحى المتعددة التى سبق أن ذكرنا بعضها يقبل عليها الطلاب إقبالا شديدا ، يتبين

ذلك من أنها لما فتحت فى يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٥٦ (أى فى نهاية العام) كان عدد طلبتها ٧٥٠ طالبا فى العام الدراسى ٩٥٦/٥٧ قفز العدد إلى ١٥٠٠ طالبا . فى العام ٩٥٧/٥٨ أصبح ٣٠٠٠ طالب . ولولا ضيق المكان لصار العدد أضعاف ذلك .

١٠ — وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٥٦ فتحت وزارة التربية المصرية مركزا ثقافيا فى أم درمان واضطلع هذا المركز بمهمة نشر الثقافة العربية بطرق كثيرة منها :

(ا) التثقيف الذاتى عن طريق المكتبة الموجودة بالمركز والتى تحتوى على ثمانية آلاف مجلد فى جميع العلوم والفنون ، وهذه المكتبة مفتوحة للشعب ويتراوح عدد روادها مابين ٢٥٠ — ٣٠٠٠ زائرا يوميا.

(ب) إلقاء المحاضرات الهادفة لخدمة القضية والثقافة العربية ، ومما يلفت النظر حقا هو إقبال الشعب على هذه المحاضرات .

(حـ) النشرات الثقافية التى يضطلع المركز بمهمة إصدارها لتنوير عقول الشعب

(ى) السينما ، فاهتم المركز بعرض الأفلام الثقافية من آن لآن ، وكان عدد الحضور فى كل حفلة لا يقل عن خمسمائة زائر .

(هـ) تعليم اللغة العربية لغير المتحدثين بها وذلك بأحدث الوسائل العلمية وهى طريقة الوسائل السمعية .

(و) الرحلات الثقافية للرجال والسيدات والصبيان .

٣ — السكك الحديدية فى السودان :

منذ القدم كان نهر النيل وطرق القوافل ووسائل النقل بين البلدان

المجاورة ، ومصر فى طليعتها إلى أن أدخلت السكك الحديدية بالسودان بوساطة مهندسى مصر .

وقد مر مد شبكة السكك الحديدية فى السودان بثلاثة أدوار :

الأول : الخطوط التى مدت فى أيام حكومة إسماعيل إلى نشوب الثورة المهدية .

الثانى : الخطوط التى مدت أثناء استعادة السودان (١٨٩٦—١٩٠٥)

الثالث : الخطوط التى مدت بعد ١٩٠٥ إلى يومنا هذا .

١ — لما ولى سعيد باشا أمر مصر رأى لكى يربط مصر بالسودان ويسهل تبادل اقتصادياتهما أن يمد خطوط السكك الحديدية بينهما ، فبعث بطائفة من المهندسين لفحص المشروع ، وجاءت التقارير بنتائج طيبة ولكن لم ينفذ منها شىء فى عهده .

٢ — واهتم إسماعيل باشا من بعده بوصل القطرين بالسكك الحديدية ، وأرسل من جانبه بعثات فنية لدراسة المشروع . وفى سنة ١٨٧٣ اعتمد المشروع . وشرع فى نفس السنة فى مد الخط الحديدى بين حلفا والمتمة (فى مواجهة شندى) حتى تم ، وطول هذا الخط ٥٥٠ ميلا ، ثم أوقف العمل عام ١٨٧٥ بسبب الارتباك المالى فى مصر وتوقف الرقابة المالية الأجنبية عن مساعدة الحكومة المصرية بالمال . فلم يقضوا بهذا العمل على تجارة السودان أوزراعته فحسب ، بل على حياته أيضاً مدة تزيد على ربع قرن ، فضلا عن أنهم مكنوا الثورة المهدية من الانتشار .

٣ — وفى عام ١٨٨٤ — ١٨٨٥ أوصل الجنود المصريون ما بين حلفا وسرس وهو مسافة تبلغ حوالى ٥٣ ميلا .

٤ — وفى سنة ١٨٩٦ عندما قامت الجيوش المصرية تعاونها أورطة إنجليزية لإخماد ثورة المهدى تقرر مد خطوط حديدية فى جميع المناطق التى تتقدم فيها الجنود وتحتلها فأنشىء الخط من حلفا إلى الكرمة (١٧٠ ميلا) . ثم أنشىء الخط من حلفا إلى أبو حمد دفن تحته آلاف من المصريين ، ثم أنشىء الخط من أبو حمد إلى العطبرة ثم مد إلى الخرطوم على بعد ٩٣١ كيلو متراً من حلفا . وانتهت هذه الأعمال فى شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩ حيث افتتح الخط للاستغلال واستكملت الأعمال بتشييد جسر على النيل . ثم اتصلت الخرطوم بسنار على النيل الأزرق ومنها إلى القضارف وكسلا . ثم اتصلت الخرطوم بكوستى (على النيل الأبيض) ومنها إلى الأبيض (١٩١٢) ، واتصلت عطبرة ببورسودان .

٥ — وفى عام ١٩١٠ استمر مد السكك الحديدية جنوبى الخرطوم ، وفى العام نفسه تم فتح كوبرى النيل الأزرق (كوبرى بحرى) . كما تم بناء كوبرى النيل الأبيض . ومدت السكك الحديدية من سنار مخترقة الجزيرة إلى كوستى وبالرغم من الضيق المالى الذى لحق بمصر فى عام ١٩١٠ فقد أعطت الحكومة المصرية السودان مبلغ ٣٥٤٠٠٠ جنيه مصرى لمد السكة الحديدية جنوبى الخرطوم وإكمال كوبرى بحرى .

وقد تم كل هذا بفضل جهود «أورطة» السكة الحديدية ، وكان آخر من تولوها اللواء محمد فاضل باشا ، ومن هذا البيان الموجز يتضح أنه لولا أموال مصر لما مدت معظم الخطوط الحديدية السودانية .

٦ — هذا فضلا عن طرق القوافل التى كانت تربط بين البلدين منذ أقدم العصور وكانت التجارة بين مصر والسودان تسير عن طريق أم درمان فالواحات الخارجة فبليمة فدارفور وهذا ما يعرف باسم

حوض النيل
طرق المواصلات

البحر الابيض المتوسط
القاهرة
اسيوط
اسوان
كرسكو
دنقلة
كريمة
ابو حمد
بورسودان
سواكن
عطبره
كسلا
الخرطوم
الأبيض
كوستي
الفاشر
ملكال
جوبا

« طريق الأربعين » . أو عن الطريق الذى ينفصل عن الطريق الأول فيصل دنقلة وكورتى ثم ينحدر عبر الصحراء حيث يعبر النيل عند موضع شندى الحالى ، ثم يسير جنوباً حتى يدخل منطقة النيل الأزرق . والطريق الثالث يبدأ عند دراو ثم يقطع صحراء النوبة إلى أبى حمد جنوباً محاذياً ضفة النيل الشرقية حتى يتصل بالطريق الثانى بالقرب من شندى الحالية . وهذا الطريق أقل الطرق استعمالا لندرة الماء .

[راجع نفس لوحة ٦ السابقة]

(٤) البريد والتلغراف :

وأدخلت مصر نظام البريد الحديث فى السودان ، فقد عهدت الحكومة المصرية إلى أحد رجالها بإنشاء مكاتب منظمة للبريد فى عواصم السودان ، فأنشئت إدارة البريد فى الخرطوم سنة ١٨٧٣ ، وأنشئت مكاتب أخرى منظمة للبريد فى الخرطوم ودنقلة وبربر وكسلا ثم فى سنار والمسلمية والقضارف وفازوغلى وفاشوده والأبيض والفاشر .

وبلغت الخطوط التلغرافية التى أنشئت فى السودان لغاية سنة ١٨٧٠ (٢١١٠ كيلو مترات) . وبلغ عدد مكاتب التلغراف فى مدن السودان (٢١ مكتباً) وذلك سنة ١٨٧٧ .

(٥) النقل النيلى :

١ — كان لمصر أسطول للنقل البحرى تمخر سفنه البحر الأحمر فى عهد محمد على وإسماعيل ، ولكن هذا الأسطول دمرت معظم بوارجه الحربية وكذلك دور الصناعة بعد أن أصيبت مصر بالارتباك المالى ومن ثم ألغيت البحرية .

٢ — لما اشتعلت الثورة المهدية فى السودان لجأ الإنجليز (المحتلون لمصر) إلى الاستعانة ببعض البواخر النيلية التى كانت راسية فى دور الصناعة بمصر فأصلحوها، واستخدمها الجنود الإنجليز لمقاتلة السودانيين.

٣ — ولما شرعت الحكومتان المصرية والبريطانية فى استرجاع السودان سنة ١٨٩٦، احتاج الأمر إلى بواخر نيلية حربية، وابتاعت مصر من انجلترا عدة منها، وحملت قطعها إلى حلفا، وهناك صار تركيبها، وكان بين أسوان وحلفا ١٢ سفينة.

٤ — وفى المدة بين عام ١٨٩٨ - ١٩٠٤ وصل عدد السفن البحرية فى السودان عشرين وابورا.

٥ — وفى خلال وجود الجيش المصرى فى السودان حتى سنة ١٩٢٤ كانت مصلحة الوابورات والمراكب فى السودان هى التى تدير حركات السفن الأميرية. بعضها يقوم بالعمل بين الشلال الأول والثانى، وبعضها فى دنقلة بين الشلال الثالث والرابع، والباقى فى الخرطوم للاشتغال فى النيلين الأبيض والأزرق. وكانت تستخدم لنقل الركاب والبريد والبضائع والمهمات.

كل هذا الأسطول النهرى شيد بأموال مصرية، ولايدرى أحد ماذا تم به عقب إرغام جيش مصر على الانسحاب من السودان عام ١٩٢٤.

ونعتقد بعد قراءة هذا البيان الموجز عن تراث مصر فى السودان أنه وضح من أنشأ الطرق فى السودان وعبدها؟ ومن مد الخطوط الحديدية فى الصحراء الجرداء ومن ضفافها؟ والجسور فوق الأنهار ومن

أقامها ؟ والقصور والمنشآت المنيعة ومن بناها ؟ والدواوين والمساجد والكنائس والمدارس ومن شادها وعمرها ؟ والجوارى والمنشآت فى البحر كالأعلام من أسسها وأجراها ؟ والأسلاك البرقية والتليفونية من أنشأها وقام بإدارتها ؟ ومن الذى وطد الأمن ومسح الأرض ؟ أليس هم أبناء وادى النيل ؟ فأين السادة الإنجليز من هذا التعمير ؟ .

(٦) النقل الجوى :

١ — وفى سنة ١٩٤٩ افتتحت شركة مصر للطيران الخطين القاهرة والخرطوم وكانت الطائرات تقوم بثلاث رحلات فى الأسبوع ، واستمر العمل على هذه الطريقة حتى سنة ١٩٥٠ ، وبعد ذلك نظمت رحلة واحدة فى الأسبوع فى الفترة مابين ١٩٥٠ — ١٩٥٢ ثم انتظمت الرحلات ثانية ثلاث مرات فى الأسبوع فى الفترة مابين ١٩٥٢ — ١٩٥٥ . ومن سنة ١٩٥٥ حتى اليوم تقوم بأربع رحلات أسبوعياً فى أيام الأحد والاثنين ، والثلاثاء ، والجمعة .

٢ — وتطورت سرعة الطائرات فبعد أن كانت الرحلة تستغرق ست ساعات ونصف ساعة من القاهرة إلى الخرطوم عن طريق الأقصر وذلك بالنوع من الطائرات المعروف (فيكنج) وحمولة الطائرة هى ٢٧ راكبا ، سيرت الشركة فى أوائل سنة ١٩٥٦ طائرات (الفيكونت) التى تقطع المسافة المذكورة رأساً فى ثلاث ساعات ، ٤٥ دقيقة فى المتوسط وحمولتها ٥٢ راكباً .

٣ — مع العلم بأن الأربع الرحلات المذكورة ، ثلاث منها بالطائرات المعروفة باسم (الفيكونت) ورحلة واحدة بالطائرة المعروفة باسم (الفيكنج)

٤ — ونسبة امتلاء الحمولة على هذا الخط حوالى ٤٠٪ من مقاعد الطائرات التى تعمل على هذا الخط من شركات النقل المختلفة .

٥ — من ذلك نرى أن شركة مصر للطيران قد لعبت دورا هاما فى سبيل النقل بين مصر والسودان وبالعكس .

(رابعا) الناحية السياسية :

لما كانت العلاقات السياسية بين البلدين لا يمكن بحال من الأحوال أن نفصلها عن الناحية التاريخية ، ولما كنا قد عالجنا الناحية التاريخية فى الفصول السابقة ، لذلك سنقصر كلامنا هنا على أغراض الإنجليز الحقيقية من الاحتفاظ بالسودان .

(١) أغراض الإنجليز الحقيقيـة من احتفاظهم بالسودان :

إن الإنجليز يتظاهرون أن رسالتهم فى السودان رسالة إنسانية قبل كل شىء فما يقصدون فى الواقع إلا تحضير سكانه ، وتهيئة أسباب التقدم لهم ، والسير بهم سريعاً نحو الاستقلال . وهذه دعوى سمعناها من كل مستعمر لم يعرف عن استعماره إلا ما يسىء إليه وما يتصف بأبشع التهم وأسوأ ألوان الاستغلال. ولو أن الأمر كان مجرد رسالة إنسانية ما رأينا كل هذا الحرص على الاحتفاظ بالمستعمرات ، وما كان هناك ذلك الصراع الشديد بين الدول المختلفة على حكم الشعوب وتوسيع مناطق النفوذ . والواقع أن للإنجليز مصالح اقتصادية واستراتيجية فى هذا الجزء من إفريقية ، هى العامل الحقيقى فى تمسك الإنجليز بحكم السودان ، والانفراد بالسلطة فيه ، والسعى إلى إبعاد المصريين عنه إبعادا تاماً ، وأهم هذه المصالح ما يأتى :

١ — استغلال السوذان من حيث موارده الطبيعية، والأيدى العاملة الرخيصة ، ومن حيث إمكان الاستفادة منه مستقبلا كسوق من الأسواق التى يستقل بها الإنجليز ... وقد رأينا أن العناية تكاد تكون مركزة فى إنتاج القطن ، الذى تريد المصانع البريطانية أن تضمن الحصول عليه من أراض خاضعة للحكم البريطانى ، ومرتبطة بالاقتصاد البريطانى كل الارتباط .

« كان الدافع إلى زراعة القطن فى السودان هو الخوف من نقص القطن الذى يمكن لبريطانيا الحصول عليه من مصادر أخرى[١] » .

ولسنا بحاجة إلى أن ندخل فى تفاصيل استغلال الإنجليز للسودان عن طريق استخدام رءوس الأموال الإنجليزية فى المشروعات المختلفة واحتكار الشركات البريطانية للمشروعات العامة نتيجة لممالأة حكومة السودان فى العهد السابق للاستقلال لها ، وتسخير سلطتها لخدمة مصالح المساهمين فى هذه الشركات ، ويكفى أن نحيل القارىء إلى الفصل الذى كتبته (إليتور برنز) فى ١٩٢٨ عن الاستعمار البريطانى فى مصر وتغلغل رءوس الأموال الإنجليزية فى السودان .

٢ — الاستفادة من السودان من الوجهة الحربية ،باعتباره واقعا على طرق مواصلات الامبراطورية فى إفريقية وغيرها وعلى أساس أن وجود إنجلترا فى بلد كمصر وغيرها من بلاد الشرق الأدنى أمر مؤقت ، لا يرجى له بقاء فى ظل الحركات القومية العنيفة التى تسود هذه البلاد ، وتزداد تأججاً وعداء للاستعمار الإنجليزى عاما بعد عام . وهذه الأهمية الحربية

---

(١) Alexander Campbell ; Empire in Africa.

للسودان يصرح بها الكتاب الإنجليز فى كثير من الكتابات فالكاتبة (إلينور برنز)(١) تقول : « وإلى جانب الاحتمال الكبير لاستغلال السودان داخليا ، فإن التحكم فى السودان مهم للاستعمار البريطانى لأسباب أخرى ، فساحله يمتد امتدادا طويلا على البحر الأحمر الذى لا يقل أهميـــة عن قناة السويس كحلقة رئيسية من مواصلات الامبراطورية ».

وتصريح هذه الكاتبة بأكثر من ذلك حين تشير إلى أهداف الإنجليز المستقبلة ، وإلى النية التى كانت مبيتة للسودان وسكانه فتقول :

« إن السودان يحد أراضى أوغندة التى لا تقل أهمية عنه ، ومن المحتمل جدا أن تضمه إنجلترا إلى ذلك الاتحاد الذى يفكر فى تكوينه ، ليشمل كل الممالك البريطانية . فى شرق إفريقية ، كشرط لأى تنازل لمصر يسلم به الانجليز مستقبلا » .

فتمسك الإنجليز بالبقاء فى السودان لحماية طرق مواصلات إمبراطوريتهم — كما كانوا يدعون — يعتبر حجة واهية وخاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ويعتبر أمرا لا تبرره المقتضيات الاستراتيجية للأسباب الآتية :

(١) فالدول التى كانت تخشاها انجلترا ، وتخاف تهديدها لمصالحها فى إفريقية والشرق الأدنى قد هزمت هزيمة منكرة ، وليس هناك أمل فى قيامها كقوى يخشى بأسها حتى فى المستقبل البعيد .

---

(١) ص ٤٥ من كتاب الاستعمار البريطانى فى مصر .

(ب) واحتفاظ انجلترا بالسودان — كقاعدة حربية لها — أمر يتنافى مع دستور هيئة الأمم المتحدة الذى لا يقر اتخاذ بعض دول العالم قواعد يمكن أن تهدد السلام العالمى فى ظرف من الظروف. ومن حق مصر — بصفة خاصة — أن ترى فى وجود الانجليز فى السودان عامل تهديد لسلامتها ووسيلة ضغط عليها.

(حـ) وإذا كان الانجليز يعارضون فى وجود المصريين فى السودان وينكرون على مصر مطالبتها بأن يكون لها وحدها حق ضمان مصالحها الحيوية فيه، فأولى بهم أن ينسحبوا منه، وبذلك يمكن اتفاق الشقيقتين على كل مايهمهما من الأمور.

٣ — وقد يكون من أهم ما يدفع الانجليز إلى البقاء فى السودان، وإلى اتباع سياسة خاصة فى الجزء الجنوبى منه، إبعاد المؤثرات الشمالية والحيلولة دون تسرب فكرة القومية والاستقلال إلى هذا الجزء من أفريقية. لأنهم يعلمون أن قيام دولة مستقلة موحدة فى السودان أمر يهدد مطامعهم الاستعمارية فى إفريقية الوسطى والشرقية. وهى مناطق مستعدة لتقبل التيارات السياسية والأفكار القومية والوطنية التى يحاربها المستعمرون ويقضون عليها بكل قوة. وما دام الشمال هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن تتسرب منه مثل هذه التيارات المهددة، فالانجليز حريصون جدا على أن يوطدوا سلطانهم فيه، وأن يمنعوا انتشار المبادىء التقدمية بين سكانه، فلما غلبوا على أمرهم فى شمال السودان، وشعروا باستحالة نجاح سياستهم فيه، وضعوا كل همهم فى جنوبه، وأقاموا كل تلك الصعوبات فى سبيل الانتقال إليه، وتعمدوا إبقاء سكانه على حالتهم المتأخرة

لهذا كله حارب الإنجليز فكرة استقلال السودان وتكوين وحدة سياسية فيه تضم شماله وجنوبه . ولكن الرياح أتت بما لا تشتهى السفن فاستقل السودان رغم أنف الإنجليز ، وأصبح وحدة سياسية تجمع بين الشمال والجنوب .

هذا بينما عرفنا فى نهاية الفصل السابع الدور الذى لعبته حكومة الثورة فى مصر لمصلحة السودان الشقيق .

محتويات الكتاب

بعض مصادر الكتاب

١ — الدكتور ابراهيم العدوى : يقظة السودان (١٩٥٦) .

٢ — Elinor Burm ; British Jmerialism in Egypt

٣ — جلال الدين الحمامصى : فى السودان (١٩٤٥) .

٤ — Slegmrn ; Egypt and Negro Africa

٥ — الدكتور راشد البراوى : دراسات فى السودان (١٩٥١) .

٦ — الشاطر بصيلى عبد الجيد : معالم تاريخ سودان وادى النيل (١٩٥٥) .

٧ — عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (١٩٤٨) .

٨ — عبد الرحمن على طه : السودان للسودانيين .

٩ — الدكتور عبد العزيز عبد الجيد : التربية والتعليم فى السودان .

١٠ — عبد الله حسين : تاريخ السودان .

١١ — الدكتور عبد الجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان (١٩٥٣) .

١٢ — الدكتور محمد صبرى : الامبراطورية السودانية (١٩٤٨) .

١٣ — الدكتور محمد عوض محمد : السودان الشمالى (١٩٥١) .

١٤ — الدكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان (١٨٢٠—١٨٩٩) . (١٩٥٧)

١٥ — مدور المهدى : تاريخ السودان (بخت الروضة بالسودان سنة ١٩٥٦) .

١٦ — الدكتور مكى شبيكة : السودان فى قرن (١٩٥٧) .
١٧ — نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث .
١٨ — Sir Harry H Fohnston: A History of the Colonization of Africa
١٩ — رياسة مجلس الوزراء المصرى: السودان (من ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ إلى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣) .
٢٠ — قضية وادى النيل : بيانات للمرحوم النقراشى (باشا) أمام مجلس الأمن (١٩٤٧) .
٢١ — مجلة المهندسين : عدد خاص يشمل سلسلة محاضرات عن وحدة وادى النيل (١٩٤٩) .
٢٢ — رياسة مجلس الوزراء : وحدة وادى النيل (١٩٤٧) .
٢٣ — مقالات لبعض الكتاب أمثال : أديسون ، برتشارد فى كتاب :
"The Anglo Egyptian Sudan from Within"

للمؤلف

١ ـ كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن » بالاشتراك، وهو بحث علمى دقيق يعتبر الأول من نوعه (٤٠٢ صفحة) ٦٠ ص

٢ ـ كتاب « تاريخ اليمن » لعمارة اليمنى الحكمى . تحقيق وتعليق وترجمة دقيقة لمقدمة وحواشى الناشر الأول (كاى) (٣٧٥ صفحة) . ٥٠ ص

٣ ـ كتاب « تاريخ المملكة العربية السعودية » بالاشتراك وقد قررت وزارة المعارف السعودية تدريسه بمدارسها (١٤٤ صفحة) . ٢٠ ص

٤ ـ كتاب « تاريخ السودان »
وهو يبين فى بساطة ووضوح تاريخ السودان من أقدم العصور إلى الآن . ١٧ ص

٥ ـ كتاب « الملكة أروى سيدة ملوك اليمن » بحث جديد عن حياة أعظم ملكة فى تاريخ اليمن الإسلامية . ٧ ص